سيميوطيقا التشبيه

د. محمد فكري الجزار
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة المنوفية

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث كيفية التحول بالتشبيه البلاغي إلى أن يصبح أداة تحليل نصي ، ولا شك أن تراثنا البلاغي توقف عند رصد الظاهرة ، وإقامة بنيتها ، وعد أنواع تجلياتها ، مذيلا كل هذا بالاستشهاد والتحليل . ونحسن نعد هذا الذي قدمه الخطاب البلاغي عن التشبيه على قدر بالغ الأهمية ، غير أنه لم يتعد مرحلة التأسيس . والخطاب النقدي الحديث بما قدمه من مفاهيم حول العلامة والبنية والنص يمثل أفقا للبناء على هذا التأسيس التراثي . من هنا التجأت الدراسة إلى مفهوم العلامة عند "بيرس" وبنيتها ، وإلى نوع "الأيقون" من أنواع تلك العلامة ، من أجل استثمار الأفق التحليلي الذي تقدمه في دفع التشبيه خارج بنيته البلاغية ليمارس دورا تحليليا للنص . ولم نكتف بهذا بل وضعنا أيقون بيرس داخل نموذج الاتصال لنعامل التشبيه باعتباره مرسلة نوعية داخل المرسلة الأدبية ، وهذا يؤدي إلى تمييز ثلاثة سياقات للتشبيه : سياق قبلي يهيئ لبناء (الموضوع) الذي يؤزم امتداد السياق ويحتم الانزياح عن خصائصه الأسلوبية السابقة التي كانت له واللجوء إلى البلاغة/ التشبيه ، فتتحول الموضوعة إلى مشبه (ممثل) ويكون المشبه به (مؤولا) ويكون وجه الشبه (ركيزة) هذا التأويل ، ونكون أمام السياق التركيبي الذي بنته البلاغة العربية بامتياز شديد ، وعبر المشبه به (المؤول) يُفتتح السياق البعدي ، حيث الوظيفة الأوسع من إدراك دلالة التشبيه ، أعني فاعلية البنية التشبيهية فيما بعدها إن على المستوى الأفقي أو المستوى الرأسي .. ولم

توفر الدراسة مراجعة بعض الرؤى التي قدمها التراث البلاغي ، من أجل تصور أكثر عدالة له ومقاربة أكثر جدوى لتحديثه .

مقدمة :

البلاغة العربية واحدة من أهم خطابات خصوصيتنا الثقافية ، ومن هنا فإن تحديثها بمثابة فريضة لا مجال لتجاوز راهنيتها ، الآن ، في ظل أيديولوجيا العولمة التي يمكن اختزالها في إعادة صياغة الخصوصيات الثقافية للآخرين (غير الغربيين ثقافيا) بما يلغي كل الهويات النقيضة للمشروع الغربي . والثقافة تقوم بإسناد كل معرفة إسنادا مفاهيميا ومصطلحيا ورؤيويا ، وفي الأخير وظيفيا ، ضابطة للوظيفة/الوظائف أيا كان نوعها بطرف ، جليا كان أو خفيا ، من أطراف الهوية اللامتناهية امتدادا وعددا ونوعا ، ومن هذا الارتباط بالهوية كانت الدراسات الثقافية – بوجه عام – دراسات أيديولوجية منحازة هدفا أوليا ونتيجة نهائية وإن تقنّع منهجها بالموضوعية . ونحن منحازون – شئنا أو أبينا – لهويتنا وثقافتنا ومنها – بلا شك – بلاغتنا ، انحيازا ينعكس في رؤيتنا للكون وفي طرائق تفكيرنا وفي أنماط سلوكنا . ومن ثم فإن أي تفاعل ثقافي مع غير/ نا يجب أن يرتهن إلى ثوابت هويتنا ، في أصغر موضوع من موضوعات الثقافة كما في أكبرها بلا أدنى فرق ، حتى لا نتورط فيما يمكن أن تنطوي عليه ثقافة الآخر من تهديدات ، ودائما ما انطوت على هذه التهديدات ، ودائما ما كان لها مفاعيل أكثر ضررا مما جنيناه من فوائد بتفاعلنا الثقافي معها .

النص ومقتضياته :

كان التطور الحاسم في النقد الأدبي الحديث هو هذا المصطلح البسيط للغاية "نص" ، والذي ظل يتداول بشكل عرضي إلى أن امتلك نظرياته الخاصة : نظرية النص ، علم اللغة النصي ، التناصية .. وامتلك من ثم منظومته الاصطلاحية الخاصة به . الفرق الأكثر أهمية في تعدي نواتجه أبعد من نظريات النص نفسها هو الفرق بين النص والجملة ، فالنص كيان لغوي متعدد المستويات مشتمل على أجزاء ، وهو نظام فعال في حين الجملة عناصر من نظام افتراضي ، وهي كيان قواعدي خالص يتحدد على مستوى النحو فحسب (علم اللغة النصي)[١] وبالرغم من القياس الذي قام به النحاة النصيون لإنجاز نحو نصي على هيئة نحو الجملة (الجملة الوظيفية) ، فإن الفروق ظلت قائمة وجلية ، ولم يكن ذلك القياس إلا محاولة لشكلنة النص قاعديا كما هو حال الجملة ونحوها [٢] . وقد حددت "جوليا كريستيفا النص "كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان"[٣] ومن ثم فقد حددت علاقة النص باللسان فيما يلي : "أ) أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع ، صادمة بناءة ، ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر المقولات اللسانية الخالصة . ب) أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي

---

(١) يراجع : روبرت دي بوجراند – النص والخطاب والإجراء – ت : د.تمام حسان – عالم الكتب – القاهرة – ط:١ – ١٩٨٨ – ص : ٨٩ وما بعدها .

(٢) يراجع : برند شبلنر – علم اللغة والدراسات الأدبية – ت : محمود جاد الرب – الدار الفنية – القاهرة – ط:١ – ١٩٨٧ – ص : ١٨٥

(٣) جوليا كريستيفا – علم النص – ت : فريد الزاهي – دار توبقال – الدار البيضاء – ط:١ – ١٩٩١ – ص : ٢١

، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"[١] . وللقطع بين اللسان والنص ، يطور "بول ريكور" قطعا من طبيعة أخرى ، القطع بين النص ككتبة وبين الخطاب كتلفظ أو كلام ، يقول "ريكور": " لنسم نصا : كل خطاب تثبته الكتابة"[٢] وافتراض القراءة الذي تتضمنه الكتابة يعلق تحقق النص على عملية ما تزال منتظرة وتظل منتظرة مهما تجلت في قراءة / أو قراءات فعلية ، ومن هنا التعريف الشديد الإيجاز الذي قدمه "ج . هيو سلفرمان" للنص : "ما لا يمكن حسمه ، وعدم إمكانية الحسم في النص تبرز بموجب نصيته" [٣] متجاوبا معه "رولان بارت" واصفا النص بقوله : "إنه لا يستطيع أن يكون هو إلا في اختلافه" [٤] .. وبهذا المفهوم وغيره للنص المفارق للجملة ، ومن ثم اللسان والنماذج الشكلية اللسانية ، تتبلور زاوية نظر إلى الأداءات اللغوية كافة (أدبية وغير أدبية) فلا تأسرها الجزئية (الجملة) ، وكذلك لا يحصرها اللسان (النماذج الشكلية). وما يهمنا أن هاجس الخروج من ضيق الجملة إلى سعة النص ، لم يكن خصوصية للنقد الأدبي ، بل غير منظورات أساسية في الدرس العلمي إلى اللغة . الأمر الذي يحدونا إلى البحث في بلاغتنا عن مستوى أعلى من بنية ظاهراتها (الجملة البلاغية) لنبحثها في إطار النص ، باعتبارها واحدة من

---

(١) جوليا كريستيفا – المرجع نفسه – الصفحة نفسها .

(٢) بول ريكور من النص إلى الفعل – ت : محمد برادة – عين للدراسات والبحوث – ط:١ – ٢٠٠١ – ص : ١٠٥

(٣) ج . هيو سلفرمان – نصيات – ت : حسن ناظم وعلي حاكم صالح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء/بيروت – ط:١ – ٢٠٠٢ – ص :١٢٧

(٤) رولان بارت – هسهسة اللغة – ت : د.منذر عياشي – مركز الإنماء الحضاري – حلب – ط:١ – ١٩٩٩ – ص : ٩٠

أهم تجليات نصية النص . إن الضرورة الملحة هي التنظير لهذه العلاقة بين الظاهرة البلاغية ونصها ، وقد قدم لنا تراثنا البلاغي خطوة على قدر كبير من الأهمية ، إذ عزل الظاهرة البلاغية ووصفها وميز الحدود بينها وبين سواها ، كما ميز بين الظاهرة الأصل وصور تجلياتها المتنوعة . صحيح أن الجهاز المفهومي الذي رشح عن هذا الجهد بحاجة إلى مراجعة منصفة ، إلا أن هذا لا ينفي الإنجاز الهام للخطاب البلاغي باعتباره تأسيسيا في مجال البلاغة النصية. وهذا – تحديدا – ما نحاوله فيما يخص البلاغة عموما والتشبيه منها خصوصا ، فالنظر إلى التشبيه من زاوية النص ستختلف ، ولابد ، عن النظر البلاغي إليه . ولهذا النظر أوليات ثلاث :

١- اعتبار التشبيه علامة تقوم على علامات صغرى ، هي عناصره التي نص عليها الخطاب التراثي العربي .

٢- تأسيسا على ما جاء في (١) فثمة نوعان من العلاقات : علاقات العلامات الصغرى التي تقوم عليها العلامة : التشبيه ، وعلاقات (نصية) لهذه الأخيرة بمهادها (سياق قبلي) وحراكها الوظيفي (سياق بعدي) .

٣- إقامة العلاقات النصية يقوم ، في الأصل ، على جهد تأويلي .

فإذا ما نظرنا إلى البنية التشبيهية : مشبه – مشبه به – وجه الشبه (فضلا عن الأداة) تبينا إلى أي حد تكاد تتطابق مع بنية العلامة في سيميوطيقا "بيرس" ..

مقدمات سيميوطيقية :- الأيقون : العالم .. العلم .. العلامة :

الأيقون والتراث المشرقي ..

الأيقون أو الأيقونة لفظة يونانية وتعني : "الصورة والتمثال ويقابلها في العربية النَصَمَة" [١] ويورد "ابن منظور" تحت مادة : نَصَم : "الصنمة والنصمة الصورة التي تعبد" [٢] . ثمة تطابق بين الدلالة اليونانية والدلالة العربية ، وما قدمه "د. ثروت عكاشة" تحت مادة : إيقونوغرافية [٣] يبين أن الحضارات القديمة كلها عرفت الأيقون/النصمة ، إلى أن حدث الالتقاء بين الرومان والمشرق (العربي اليوم) على قاعدة المسيحية ، فصارت : " تنطبق .. على تصاوير الشخوص المقدسة في الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، مثل أيقونات القديسين أو أيقونات (السيدة) العذراء . وبعد الجدل العنيف الذي ثار حولها في بيزنطة خلال القرنين الثامن والتاسع صاغت الكنيسة الشرقية نظرية تقديس الأيقونات وشرّعت قانونا كنسيا أو مجموعة من القواعد التقنية تضبط أشكالها الفنية"[٤] فحافظت الكنيسة الشرقية على إيمانها بالأيقونات التي ظلت طقسا شعائريا خاصا بها . وتطورت هذه الأصول المشرقية للمصطلح : "أيقون ICON ، أيا كانت الأسباب ، إلى أن أصبحت

---

(١) المنجد في اللغة – دار المشرق – بيروت – ط : ٣٥ – ١٩٩٦ – ص : ٢٢

(٢) ابن منظور – لسان العرب – دار المعارف – القاهرة – المجلد السادس – ص : ٤٤٤٦ وورد القول نفسه منسوبا إلى ابن الأعرابي تحت مادة : صنم ، كدلالة فرعية ، في المجلد الرابع – ص : ٢٥١١

(٣) د.ثروت عكاشة – المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية – مكتبة لبنان – بيروت – ١٩٩٠ – ص : ٢١٦

(٤) د. ثروت عكاشة – المرجع نفسه – مادة : أيقون – ص : ٢١٥

نظرية ومن ثم أفرزت قواعد تضبط تطبيقها لتحقيق غاياتها . هـذا فيما يخص الأصل المشرقي للمصطلح والسياق الثقافي الذي أنتج فيه . ومنه يمكننا إيجاز خصائص الكلمة/المصطلح في :

١- الدلالة الواحدة للكلمة/المصطلح في اليونانية والعربية .

٢- الأصل المشرقي (المسيحي) للكلمة/المصطلح .

٣- الدلالة التصويرية لها .

واضح أن "الأيقون" لم يكن إلا صورة (تشكيلية) وهو ما يلتقي مع المعيار الذي نتبناه للمثاقفة بين الذات والآخر ، أعني : وجود مشترك إنساني بين وحدتي المثاقفة . وكان التطور الأخير للأيقون أن صار مصطلحنا سيميوطيقيا لا يشترط على الممثل فيه طبيعة مادته ، أكانت صوتا أم حرفا أم خطا .. إلى آخره ، فالأهم أن يكون وجه /وجوه تمثيله لموضوعه قائما على التشابه بينهما . هنا تلتقي الأيقون (التاريخي) مع التشبيه على قاعدة التمثيل مع الفارق في الدرجة ، فالأيقون تمثيل من كافة الوجوه ، والتشبيه تمثيل من بعض الوجوه ، وفي حين يحيل الأيقون (إلى ما يمثله متطابقا معه) يدل التشبيه بفضل عدم مطابقته ما يمثله ، والاختلاف كبير بين الإحالة (في الأيقون) والدلالة (في التشبيه) فالأول لا يكاد يخرج من تاريخيته ليمارس دوره كعلامة ، بينما الأخير علامة يحكم دلالية تمثيله . والتمثيل بالإحالة كما التمثيل بالدلالة نتاج وعي (الذات) بفائض دلالة "الموضوع" (العالم) الذي تحاول العلامة القبض عليها ، ليس عبر "الممثل" الذي يحيل إليه ، وإنما عبر دينامية العلاقات القائمة داخل العلامة .

ع ل م : النسابة الصرف دلالية (المورفوسيمانتيكية) ..

إن اللغة وسيط رموزي شديد الحساسية لعلاقة الذات (الوعي) بالعالم، وقد بلغ هذا الوسط من فرط حساسيته أن تعددت أنظمة توسطه على ضوء تنوع أشكال تحقق تلك العلاقة بين "الوعي" و"العالم" رادا ذلك التنوع (اللامتناه) فيه إلى عدد متناه من الأصول تمثلها السيميوطيقا التي نحاولها ها هنا . وكل لغة تحمل فيما وراء أنظمتها خطابا فلسفيا خاصا بها لا يفرط في شيء ولا ينفرط من بين يديه شيء ، وتمثله العلاقات القائمة بين عناصر النظام اللغوي ، صغرت أو كبرت هذه العناصر . ولا نكاد نوري في قناعتنا بأن الاشتقاق اللغوي فعل ثقافي ، إذ هو تعبير عن رؤية الذات لعلاقة ما بين الصيغ الصرفية المختلفة وجذرها ، علاقة تمثل وحدة من وحدات الخطاب الفلسفي الذي ندعيه لكل لغة ، وبخاصة حين يكون للصيغة الواحدة مجال دلالي مختلف عن الصيغ الأخرى .. فثمة صيغ تدور في الفلك الدلالي لجذرها لا تكاد تفارقه ، وهذا محض توسع للوفاء بمقاصد الجماعة اللغوية ، وثمة أخر لا يضبطها دلاليا الجذر الاشتقاقي ، بل تنضبط وفق التصورات الاجتماعية (الفلسفة الاجتماعية) التي تقف خلف القرابات الصوتية فيما بينها لتنمي منظومة من القرابات المفاهيمية .

من هذه المفردات : "عالم" ، "علم" ، "علامة" ، والدلالات المعجمية التي لها مختلفة ومتنوعة تنوعا غير هين ، بينما القرابات الصوتية : "ع" "ل" "م" تشي بخطابها الفلسفي .إن "العالم" ، في المعجم ، الخلق كله بصنوفه وألوانه كافة ، حيها وجامدها ، أو هو الكون وما حوى ، و"العلم" الفقه والمعرفة والخبرة والشعور ، و"العلامة" السمة مخلوقة كانت أو مصنوعة [١]

---

(١) راجع – ابن منظور – لسان العرب – دار المعارف – القاهرة – المجلد الرابع – مادة : علم – ص :٣٠٨٢ وما بعدها .

. وظاهر هذه الدلالات – كما سبق القول – الاختلاف والتنوع ، أو أنها بحاجة إلى جهد غير لغوي (غير معجمي) لرد هذا الاختلاف والتنوع إلى نسق يضبطهما على هيئة ما بينهما من قرابات صوتية ، وهو ما نطلق عليه الخطاب الفلسفي القائم فيما وراء المعجم خصوصا واللغة عموما . لنتوقف – إذن – أمام الصيغة/الجذر اللغوي لمادة "علامة" و"عالم" : "علم" (المصدر) وفعله "علم" ، إنها صيغة تحدد من بين أفراد العالم كائنا حيا عاقلا ، وتفرده من بين الجميع فاعلا لهذا الفعل ومنتجا لذلك المصدر . وهكذا تفعل الدلالة المعجمية للمفردة في سواها ، فترفع حالة التكافؤ التي بين كل أفراد العالم وتنسقها على محورين محور فاعل العلم : الذات ، ومحور موضوعات هذا العلم : ما سوى الذات من أفراد العالم . والعلم بالشيء تمييز له ، والتمييز من الوسم أو هو به ، وهنا تأتي مفردة "العلامة" باعتبارها مظهر العلم بالعالم . أظهر العلم ، لا الفلسفة فقط ، أن أشياء العالم توجد وجودا منقوصا ، إذ لا توجد بذاتها في ذاتها ، بل إنها تنطوي على احتياج (أونطولوجي) أصيل فيها ، احتياج إلى بعضها البعض لكي تتمايز وتتعرف . إنها حالة وجود يمن أن نطلق عليها حالة "الوجود – مع"[١] وبإسقاط العلم لمفهوم العلاقة على أشياء العالم تبدأ العلامة في الوجود والفعل . في زعمنا أن العلاقة (– مع) هي النسق الأولي الذي بتطويره برزت السيميوطيقا باعتبارها نسق الأنساق أو علم العلوم ، كما تذهب إلى ذلك "جوليا كريستيفا"[٢] فكانت "العلامة" بديلا جذريا من الشيء ، فلا قيمة لحضور

(١) إن "مع" – هنا – تمثل رمزا للعلاقة ، أيا كان نوعها ، أكثر من كونه حرفا لغويا من حروف المعاني في العربية .

(٢) جوليا كريستيفا– السيميائية علم نقدي و/أو نقد للعلم – ت جورج أبي صالح – مجلة العرب والفكر العالمي – مركز الإنماء القومي – بيروت – العدد الثاني – ربيع ١٩٨٨ – ص ٢٦ وما بعدها .

الشيء حال غيابها ، فيما يغني حضورها عنه غناء تاما . ومفهوم "الوجود – مع" في عمل العلامة يقوم على أساسين ، الأول : طبيعة العلاقات الداخلية في الشيء نفسه . والآخر : الاحتمالات التي يحملها فضاء تلك العلاقات للامتداد باتجاه الشيء الآخر . ولو ارتكزنا إلى هذه الاحتمالات – من منظور الشيء الآخر – لالتقينا الفعل نفسه مرتدا إلى ما امتد عنه . ومن هذا التضافر الجدلي بين الداخل والخارج تنتج عملية التدليل السيميوطيقي .. إن العلامة تحيل إلى الشيء في علاقته (– مع) سواه ، غير مشروطة بنوع ما تحيل إليه ، إنما تشرطها علاميتها هي ، أعني : إمكان النظام أو النسق الذي يمكن أن ينتج الوظيفة السيميوطيقية من تعالق علامات مختلفة في مقامات تواصل معينة بكفاءة . وتعدد مقامات التواصل دفعت إمكان النسق هذا إلى أن يفارق العالم ويستغرق في علاميته ، ومن ثم فتح العلامة على عدد من المستويات : المتحقق أو الواقعي ، والممكن الذي لو وجد لكان واقعيا ، والمستحيل الوجود والإمكان معا ، وهي مستويات يمكن توزيعها علاماتيا على : المعياري والمجازي والمتخيل . أولا : المستوى المعياري : حيث يكون تحقق النسق علاماتيا متطابقا مع الواقع المعبر عنه ، حيث المقام التواصلي لا تحتاج شروطه إلي الإضافة أو التغيير من طبيعة التدليل العلاماتي . ثانيا : المستوى المجازي : هذا الذي عبرت عنه الأسلوبيات الحديثة بالعدول أو الانحراف ، إذ يضيق النسق عن مقاصد المقام التواصلي وشروطه في مواضع فينحرف الأداء (عن الواقع خارجه) حتى حين ، غير أن درجة الانحراف مهما زادت لا تلغي إمكان تأويل العدول بالنسق نفسه . ثالثا : المستوى التخييلي : وهو درجة من العدول تصل حد الانقطاع بين اللغوي والواقعي حتى تتعطل فاعلية التأويل السابقة ، للتكفل العلامة /

العلامات بصناعة عالمها هي . وليس اللجوء إلى هـــذا المســتوى خاصــا بشروط للمقام التواصلي على تحققه بل لاختلاف مقاصد التواصل نفســها . إن علاقة العلامة بالعالم علاقة شديدة التعقيد إذ إنها لا تتحقـــق بذاتــها ولا توجد في فراغ ، بل هي علاقة مرتهنة إلى فاعلها (الوعي ماثلا في حضــور الذات) و مقاصده ، وهو ارتهان يجعل من مرونة النسق العلاماتي ضــرورة مؤسسة له ، إنها مرونة تمنع استفراغ كافة إمكانات العلامة في مراوداتـــها للعالم .. إذن ، فاللغة – على هدي من علاقة العلامة بالعالم – هي خطـــاب هذه العلاقة ، يكون كيف كانت وعلى هيئتها ، أي أنها لا تستنفد في أصواتها ولا في أنساقها ولا في مستوى من مستويات تحقق أداءاتها .

ما وراء العلامة ..

كثير من الموضوعات الحافة بعلم العلامات أو السيميوطيقا لم ينل ما يستحق من التأني الفكري أمامه . ومما لم ينل حظه من الدرس ، لا اللســاني ولا السيميوطيقي ولا الفلسفي ، ما نطلق عليه مــا وراء العلامــة أو (الـــ meta-sign) ، ونعني به النسق الذي تتولد منه العلامة ، أية علامة ، إنـــه نسق حجبه وجود العلامة ، وإن كانت هي نفسها لا تفتأ تشير إليـــه ، عــبر تجليها فعلا تدليليا في كل مقام تواصلي . يتكون هذا النسق من ثالوث "الذات – العالم – العلامة" حيث تمثل "الذات" رأس المثلث ومنها تستمد قوة العلامــة وحراك العالم ، وبفضلها – أعني "الذات" – تتم عملية التدليل التي تقوم بيــن العالم والعلامة ، فالأول يؤشر على علامته ، والأخرى تقدم مفهومه ، كمــا يمثل الشكل التالي :

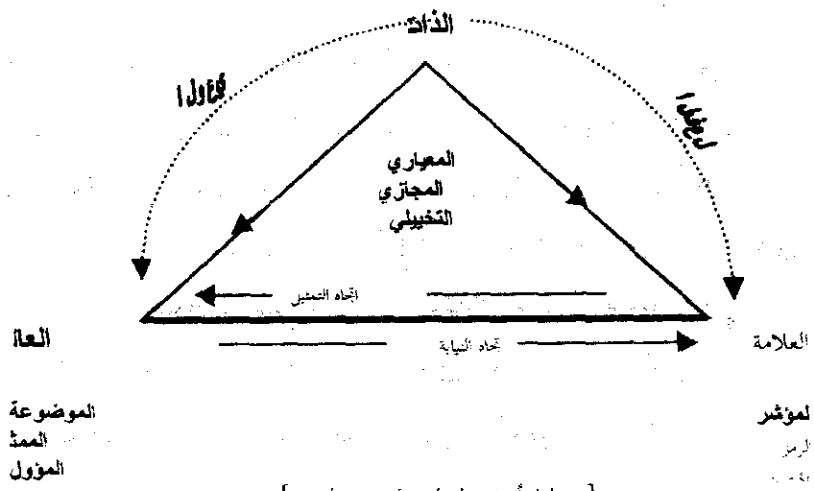

[مخطط أنواع التدليل السيميوطيقي]

ما نود التأكيد عليه أن هذا النسق هو القائم خلف كل علامة يمنحها كفاءتها السيميوطيقية ، ولولاه ما امتلكت كفاءتها هذه الصفة . ولما كان الأمر – فيما نعتقد – كذلك ، فإليه – أعني إلى النسق الماورائي للعلامة – تعود الأنواع الثلاثة للعلامات في السيميوطيقا : المؤشر INDEX والرمز SYMBOL والأيقون ICON وتتدرج جميعا في الشكل السابق تحت "العالم" . وإليه – أي إلى النسق – كذلك تعود بنية العلامة : الموضوعة والممثل والمؤول (ركيزة التمثيل) ، وتتدرج جميعا تحت "العلامة" ، وإليه أخيرا تعود طبيعة مقامات الاتصال وتنوعاتها واختلاف مستوياها : المعياري والمجازي والتخييلي ، والتي تتدرج جميعا تحت "الذات" . ويبقى أن نشير – أخيرا – إلى أن كل فصل بين الذات والعالم والعلامة هو محض فصل إجرائي ، إذ لا واحد من الثلاثة يمكن أن يوجد في كمال كينونته إلا

داخل شبكة معقدة من العلاقات بالآخرين ، شبكة معقدة تعقيدا يصل إلى حد لا إمكان التمييز الأونطولوجي بين الثلاثة جميعا . إننا لنذهب إلى أنه لا عالم بلا ذات وعلامة ، كما لا ذات بلا عالم وعلامة ، وأخيرا لا علامة – بالطبع – دون ذات وعالم . وإن أي تجريد – إن لم يكن لغاية إجرائية – هو محض خطأ أو هو خطأ محض . وعلى أساس هذا التصور، فلا إمكان للغة أن تنفرد باقتراح نموذجها اللساني كنموذج ضابط لكل من العالم والذات ، إن السيميولوجيا لتبدو أضيق حدودا ومقولات من استيعاب هذا التضافر لعناصر الثالوث المؤسس للسيميوطيقا : الذات – العالم – العلامة .

في المسألة السيميوطيقية :

تبدأ السيميوطيقا ، في رؤيتنا ، من تصورنا للوجود الإنساني ، باعتباره وجودا متعديا (بالمفهوم النحوي للتعدي واللزوم) إنه وجود لا تتحقق صفته (الإنسانية) إلا بفضل تعديه إلى ما لا حصر له مما سواه إلا بما اصطلحنا عليه بكلمة : "العالم" . وتبلغ حتمية العلامة في تصور العالم حد أن يستحيل تصور هذه الأوليات الصعبة لمقاربة الإنسان العالم بلا أية واسطة يمكنها أن تنوب عن حضور هذا الأخير . وعلى كل حال ، فمن خلال تاريخ (يبدو أنه مطابق لتاريخ الوجود الإنساني) تبلورت شبكة شديدة التعقيد من العلاقات بين الإنسان وعالمه ، حتى أمكن تجريد أهم أنساق الاتصال على الإطلاق ، أعني أنساق التمثيل النيابي ، حيث لم يعد انتصاب الذات إزاء ظاهرة من ظواهر عالمها ضرورة لحركة وعيها وقصديتها إياها . لقد اخترع الإنسان – أخيرا – ما نسميه "العلامة" sign . بوجودها أمكن الحديث عن عالم افتراضي يطابق العالم لأن ذاك التطابق هو الأصل، أو ينحرف عنه في الاتجاه إليه لأسباب ، وأخيرا قد ينقطع عنه لغايات ، و تقدم العلامة –

وفي كل الأحوال – عالما افتراضيا بفضل نيابتها عن العالم الواقعي و تمثيلها له . نحن – إذن – إزاء سمتين جوهريتين للعلامة ، أولاهما : النيابة proxy ، والأخرى : التمثيل representation ، ولا علامة إلا بهاتين السمتين أيا كانت صفة ما تمثله و تنوب عن حضوره . والسمتان تعنيان وجود شيء آخر تحل محله العلامة نيابة عنه وذلك بحسب نوعها ، وهي تحل محله بفضل بنية داخلية فيها تسمح بتمثيل هذا الشيء الآخر ، فالنيابة – إذن – وظيفة ، والتمثيل بنية .. وبالطبع تسبق هاتين السمتين ثالثة باعتبارها سمة مؤسسة ، هي سمة "التوسط" mediate .. توسط العلامة بين "الذات" و"العالم" .

١ – نيابة العلامة عن العالم

يبين المخطط السابق أن اتجاه النيابة يبدأ من العالم وينتهي إلى العلامة حيث تتدرج أنواعها الثلاثة : "المؤشر" ، "الرمز" ، "الأيقون" . ومؤدى هذا أن كلا من هذه الأنواع الثلاثة تحمل ، في فلسفة وجودها ، شيئا من العالم ولابد .. شيئا يبرر نوعيتها بحسب موضوعات العالم التي لا تتناهى كمّا كما لا تتناهى نوعا ، أو نعد العالم كما التعبير القرآني "عالمين" (جمعا لمفرد :عالَم) .

٢ – تمثيل العلامة للعالم

إن اتجاه التمثيل – كما يبين مخططنا للنسق السيميوطيقي المولد لكل علامة – يبدأ من العلامة إلى العالم لتتجلى بنيتها عنده مؤكدة على جدارتها بتمثيله من خلال تحويل العالم إلى موضوعات THEMES توضع إزاء ما يمثلها . ومن علاقة الموضوعة بممثلها يكون العنصر البنيوي الثالث

للعلامة : المؤول ، وهكذا تكتمل البنية الثلاثيـــة للعلامـــة ، ليبـــدأ إمكـــان "السيميوطيقا" ، أو لتبدو "السيميوطيقا" كإمكان لا ينقصه ليتحقق إلا مقامـــات التواصل .

٣- التوسط بين الذات والعالم

إن مفهوم التوسط يحدد دور العلامة وضرورتها إن بالنسبة للـــذات وعيا واتصالا ، أو بالنسبة للعالم فهما وتمثيلا ، وهو الذي يفسر المفـــهومين الآخرين ، وبمعنى آخر يشرح : لماذا تتنوع العلامات ، وكيف تتبني ؟

من الذات إلى العالم وبالعكس ، عبر العلامة ..

يبدو النسق المولد للعلامات ، أيا كان نوعها ، قائما على آلية تتيـــح سمطقة كل ما يقع للذات من العالم إن حسا وإن تخييلا ، أو كما قـــال "ابـــن سينا" : : "إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، وتتأدى عنها إلى النفس ، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غـــابت عـــن الحس .. معنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مســـموع اســـم ، ارتسم في النفس معنى ، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم ، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه" [١] ومن المعنى وبه التفتت ، مـــرة أخرى ، إلى ما ورد على الحس من صور مغنية إياه أو مداعية سواه ممـــا له علاقة به أيا كانت هذه العلاقة . المسألة أكثر تعقيدا من هذا ، وافـــتراض لا تناهي هذه العملية يبرر حضور كل من المجازي والتخييلـــي كضـــرورة للمعياري نفسه ، هذا الذي لو توقفنا عنده لتوقفت فاعليـــات الوعـــي نفسها

---

(١) ابن سينا – العبارة (ضمن كتاب : منطق الشفاء) – تحقيـــق : إبراهيـــم مدكـــور وآخرين – القاهرة – ١٩٦٦- ص : ١٨

وفاض العالم عن الوعي به ؛ ما دامت اللغة أداة الوعي ومحتـــواه ، وهـــذا محال . الأمر الذي يؤكد على ما صدق افتراضنا السابق ، أعني لا تتنـــاهي عملية التدليل السيميوطيقي ، ومن ثم تنوعها .. وبعد ، فيمكننا تصور هـــذا الذي يحدث من خلال المخطط التالي ، على أن نضع في خلفية فهمه النسـق المولد له :

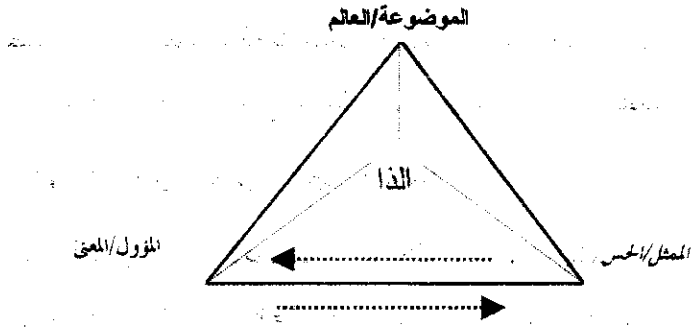

ويتولد النسق السيميوطيقي (الفعلي) من حركـــة الإحـــالات داخـــل العلامة " فمقولة المؤول – الحجر الأساس في أي تعريف للتدليل – يشـــكل نقطة الارتكاز الأولى في تعريف العلامة وفي وجودها وفي أشكال تجلياتها ، ما دام الأول يحيل على الثاني عبر ثالث هو نفسه قابل لأن يتحول إلـــى أول يحيل على ثاني عبر ثالث جديد " [١] والعلامة – في هذا النسق – ليســـت أكثر من مفهوم علائقي يربط بين علامات صغرى (أو جزئية) ربطا ديناميا. وعلى هذا التصور للعلامة لا يمكن أن نعـــرّف الســـيميوطيقا بأنـــها علـــم العلامات .. هذا التعريف العام والشائع في اغلب الدراسات ، إنمـــا هـــي – بالأحرى – علم [redacted] سمطقة العالم عبر اشتغال العلامة .

---

(١) سعيد بنجراد – المؤول والعلامة والتأويل –

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com

العلامات الصغرى

قلنا أن العلامة هي محض مفهوم علائقي ينسق عددا من العلامات الصغرى تنسيقا حاملا لوظيفة كل علامة داخل ديناميـة العلامة أو لنقل العلامة الكبرى . تلك العلامات الصغرى هي : الموضوعة – الممثل – المؤول :-

١- **الموضوعة** : وهي – عند بيرس – ليست من الموجودات أو الموضوعات الواقعية في شيء ، إنما هي نوع من الكليات المجردة عن تلك الموجودات أو الموضوعات ، أو هي صفة من بين صفاتها ، والممثل لا ينوب عن الشيء في كليته ، وإنما عن جزء منه أو صفة من صفاته ، وذلك عبر ما سماه بيرس مرتكز التأويل الذي يحدد وجهة تمثيل الممثل لجانب من جوانب الشيء .

٢- **الممثل** : وهو الحامل المادي للعلامة (العلاقة) إلى الحد الذي ينصرف إليه مباشرة إطلاق كلمة العلامة ، وهو يحيل إلى الموضوعة .

٣- **المؤول** : وهو المصطلح الذي تميزت به سيميوطيقا بيرس من سيميولوجيا سوسير ، إذ هو ليس متصورا ذهنيا كما عند الأخير ، بل علامة جديدة قد تكون من نوع الممثل نفسه أو من نوع آخر . تقول د.سيزا قاسم : "تمثل المفسرى (تعني المؤول) حجر الزاوية في تعريف بيرس للعلامة (/المفهوم العلائقي) فهي مكمن المعنى ومكان تولده ، وتكون آلية تولد المعنى هي الترجمة ، فالمعنى هو نتاج ترجمة علامة إلى علامة أخرى ، قد تكون من نفس النوع ، أو تكون من نوع مختلف ، وهذه العلامة الثانية مفسرة (مؤولة) للعلامة

الأولى"[١] ولا تعد ركيزة التمثيل علامة صغرى ، إذ إنها تمثل وجه (أو وجوه) تمثيل "الممثل" لـ"الموضوعة" .

فرضية الاتصال البيرسية ..

إن التعريف السابق للسيميوطيقا يقوم على فرضية أساسية عند "تشارلز ساندرز بيرس" مؤسس السيميوطيقا ، إذ "يقرر كثير من الباحثين في فكر بيرس أنه كان ينطلق من فرضية أساسية هي : اتصال الكون ، وهي فرضية تستلزم نتيجة طبيعية هي انتظام الكون وفق سننية لا تتخلف ، نراها نحن – وفقا لثقافتنا – تدبير " الخلاق العليم" ، وهو ما تبيناه في الدلالة المعجمية لكلمة "عالم" . إن هذا الإسناد العقائدي ضروري للسيميوطيقا ، إذ إن قيام علم من العلوم يحتاج إلى يقينية أكثر ثباتا من فرضياته ، وإذا كان هذا العلم يقوم على مبدأية النظام الشامل ، كما هو الحال مع السيميوطيقا تصبح تلك اليقينية الثابتة ضرورة لقيامه ، ولو بالإسناد العقائدي . ما يهمنا – هنا – هو : إن مفهوم الاتصال ، ومفهوم الانتظام ، ومفهوم الترابط يستند إلى تصور كسمولوجي (كوني) معين يرى أن أي شيء يمكن أن يُجزأ بحسب مرتبته ومنزلته في النسق العام"[٢] وتأسيسا على هذا التصور أمكن

---

(١) سيزا قاسم – السيميوطيقا .. حول بعض المفاهيم والأبعاد – ضمن كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا – إعداد : نصر أبو زيد وسيزا قاسم – دار إلياس – القاهرة – ١٩٨٦ – ص : ٢٧

(٢) د. مفتاح محمد – مفهوم الحقيقة عند تشالز ساندرس برس – http://www.aljahidhiya.asso.dz/Revues/tebyin15.htm

لـ"بيرس" أن يقترح ثلاث مراتب : الأولانية[١] و الثانيانيـــة[٢] و الثالثانيـــة[٣] وذلك على أساس ثلاثة اعتبارات :-

١- علاقة الممثل بذاته ، وله ثلاث رتب هي :

- الكيفية

---

(١)- انطلق "برس" في تقطيعاته لجهات الوجود من تصور ميتافيزيقي ورياضي فـي آن واحد . التصور الميتافيزيقي يتجلى في البداية بالمجرد والانتهـــاء بالمحســوس، وأما التصور الرياضي فهو الابتداء بالصفر والاستمرار إلى مـــا لا نـــهاية ، ولكن برس اكتفى بمراتب ثلاث بعد الصفـــر ؛ ففي درجة الصفر ليس هناك شيء ، وليس هناك داخل وخارج أو قانون وإنما هناك إمكانيات غير محدودة. المرجـــع السابق .

(٢) حينما يتحقق الشيء ويصير موجودا فإنه من المرتبة الثانيانية لأن ما وجد وجـــد بارتباط مع شيء آخر. وما وجد بعلاقة الثانيانية هو مثـــل الفعـــل ورد الفعـــل، والضغط والمقاومة، وعلاقة الحال بالمحل، والصانع بالمصنوع، واللازم بالملزوم هو وجود يقابل العدم له داخل وخارج وقبل وبعد... إنه الوجود الفعلي المتجســـد المرتبط بعالم الموجودات التي يترابط بعضها ببعض. المرجع السابق.

(٣) ولا يكتسب الموجود هويته ووظائفه إلا بانتظامه وتبنيه من المجتمع الذي يجعـــل منه قانونا عاما ملزما؛ أي ثالثانيا، إن الثالثانية لازمة عن المرتبتيـــن الســـابقتين، فهي تتويج لـــهما أو قمة لـــهما من جهة أو باعتبار، وهي مـــن جهة ثانيـــة أب لهما حيث يمكن التنقيص والضغط والإضعاف، أو التكبير والنشر والتنمية. ومـــن ثمة فإن كل ظاهرة تحتوي على الأولانية والثانيانية والثالثانية . وأغلب الثقافـــات الإنسانية هي إحدى درجتي الثالثانيـــة. ولفهم هذه الدرجات يجب إدراكها في نسق كما يجب إعادة التضخمات إليه. الثالثانية نسق يتحكم فـــي عنـــاصره الموجـــودة ويستحضـــر إلى الذهن ما غاب منها، والثالثانية ليست مفروضة مـــن الطبيعـــة ولكنها فرضت على الطبيعة لتحديد اللامحدود . المرجع السابق.

- العينية
- القانونية .

٢- وعلاقة الممثل بموضوعته ، وله ثلاث مراتب هي :

-الأيقون
- المؤشر
- الرمز .

أما الأيقون فثلاث درجات هي : المطابق - المماثل - المشابه . بينما الرمز درجتان : طبيعي - عقلي .

٣- وعلاقة المؤول ثلاث مراتب هي :

-الحملية .
- القضوية .
- البرهانية .

وقد رُتِّبت البرهانية إلى ثلاث ، والقضوية إلى اثنتين .

وفيما يلي المخطط الأكثر ذيوعا لهذه المراتب :

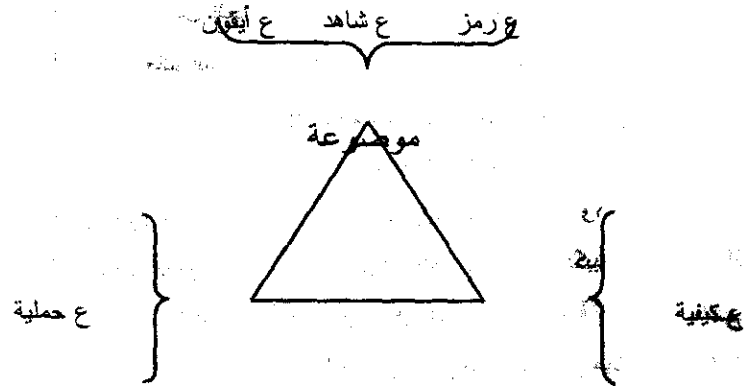

ولا تستقيم العلامة بالمعنى الكامل إلا بالتئام ثلاثة فروع ، كل فرع من إحدى الحيثيات (الاعتبارات) الثلاثة . مما سبق تتجلى القيمة السيميوطيقية لكل من الاتصال والترابط والانتظام والتي تحقق لسيميوطيقا بيرس صفة الكونية (الكوزمولوجية) الأمر الذي يفتح مفهوم اللغة إلى أبعد من حدود اللغة الإنسانية Language لتشمل كل ما يتم به اتصال ما ، كما إنها تفتح ، عبر طبيعة المؤول ، الحدود بين العلامات المتنوعة والمختلفة ، ما دام النسق السيميوطيقي غير مرتهن إلى نوع بعينه من العلامات . وهذا أمر على قدر كبير من الأهمية في تناولنا لسيميوطيقا التشبيه ، حيث فرضيتنا عن العلاقة بين الصورة والأيقون والتشبيه ..

في المسألة الأيقونية ..

هل ثمة ما يمكن أن يستخلص من كل ما سبق ، وبالتحديد فيما يخص الأيقون ؟ .. أعتقد ، وإنه لكثير ، نكتفي منه بما يلي : ينتمي الأيقون إلى المرتبة الأولانية . ينشأ عن علاقة الممثل بموضوعته . العلاقة بين الطرفين علاقة صفاتية . يتفرع عنه المطابق والمماثل والمشابه .. فيما يبدو من تعريف "تشارلز ساندرز بيرس" للأيقون أن استخدام أي شيء شبيه لآخر كعلامة له يصبح – ولابد – أيقونا. يقول بيرس : ".. فالأيقون ICON هو العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر الطبيعة الذاتية للعلامة فقط . وتمتلك العلامة هذه الطبيعة سواء وجدت الموضوعة أم لم توجد . صحيح أن الأيقون لا يقوم بدوره ما لم يكن هناك موضوعة فعلا ، ولكن ليس لهذا أدنى علاقة بطبيعته من حيث هو علامة . وسواء كان هذا الشيء (الممثل) نوعية أو كائنا موجودا أو عرفا ، فإن هذا الشيء يكون

أيقونا لشبيهه عندما يستخدم علامة عليه [١] بناء على هذا فإن حصر العلاقة الصفاتية بين الممثل والموضوعة لا يمكن حصرها في تلك الدرجات الثلاث التي تكاد تكون الفروق فيما بينها فروقا نسبية ، كما هو الحال في الفرق بين المشابه من جهة وكلا من المطابق والمماثل من جهة أخرى ، أولا توجد أية فروق –أصلا – كما فيما بين المطابق والمماثل . فلنقل إن علاقة التشابه بين الممثل والموضوعة هي الأساس في اعتبار العلامة أيقونا ، أيا كانت درجة التشابه بينهما، أكان الشبه واقعا بالفعل أو كان مدعيا به (متخيلا)على الموضوعة . فإذا ما رجعنا إلى أن تمثيل الممثل/الأيقون لا يكون لجميع جهات الموضوعة أمكن أن نزيح توعي المطابق والمماثل عن مفهوم الأيقون ، وأمكن كذلك أن نرى إلى الأيقون باعتباره عاملا على مستويين ، أولاهما : مستوى الموضوعة بتحديد جهة/جهات تمثيله . والآخر :– مستواه هو نفسه بالنظر إلى مستقبل إنتاجيته المنتج للمؤول ، حيث يعمل على تأكيد أهليته التصويرية للموضوعة وإن من جهة واحدة من جهاته . في المستوى الأول يتم تأسيس الأيقون ناظرا إلى الموضوعة ، وفي الثاني يكتمل ناظرا إلى المؤول . والمبدأ البنيوي في الأول هو التشابه . أما في الأخير فالتصوير ، بمعنى أن الموضوعة محض محفز Motive لمجرد التشابه مع الموضوعة ليتحول إلى صورة منتجة لمؤولها . التشابه – إذن – أساس ، غير أن الإشكال في طبيعة الموضوعة ، فوجود تشابه بين شيئين أو ادعاؤه يعني – ضرورة – وجود الاثنين ، وتحديدا موضوعة الممثل ، أيا كانت صورة هذا الوجود أو طبيعته . أما عدم اشتراط وجود الموضوعة فهو أمر

---

(١) تشارلز ساندرز بيرس – تصنيف العلامات – ت : د. فريال جبوري غزول – ضمن كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا – مرجع سابق – ص : ١٤٢

بحاجة إلى كثير من الأناة والتروي إزاء تعريف الأيقون . في واحـــد مـــن الخطابات العربية حول الأيقون جاء :

"- الأيقون : علامة تمتلك الخصائص التي تجعلها دالة حتى إن لم يوجـد موضوعها ..

- الأيقون : ممثل ، وخاصيته التمثيلية أولانية الممثل .. أي أن خاصيتـه كشيء تجعله مؤهلا لأن يكون ممثلا . وتبعا لذلك ، فأي شيء يمكـــن أن يصبح بديلا من شيء آخر يشبهه ..

- يمكن للعلامة أن تكون أيقونية .. بمشابهتها ، كيـــف كـــانت صيغـــة وجودها" (١)

إن صيغة الممثل الأيقون تتوفر لها الحرية من طرفين ، الأول : من جهة الموضوعة فلا يشترط الوجود الواقعي لها ، وهو ما يعني انفتاح تمثيـل الأيقون على فضاءات المجازي والتخييلي ، وضمنا البلاغي ، دونما حـــد . والآخر : من جهة الأيقون هي نفسها فيكفي التشابه ليكون ممثل ما أيقونا أيـا كانت صيغته . وهو ما يعني دخول اللغة بقوة في المسألة الأيقونية . هذا مـا يتوضح أكثر في تقسيمات بيرس ، يقول محمد الماكري:" .. ويرى بيرس أن بالإمكان تقسيم الأيقونات الجزئية حسب الصيغة الأولانية التي تشارك فيها ، فتلك التي تعتبر جزءا من النوعيات البسيطة .. هي : الصور (بالمفهوم العام للصورة)، وتلك التي تمثل العلاقات الثنائية أساسا بين أجزاء شيء عن طريق علاقات مماثلة في أجزائها الخاصة هي : الصور البيانية (ومن بينها التشبيه

---

(١) محمد الماكري – الشكل والخطاب – المركز الثقافي العربـــي – بـــيروت/الـــدار البيضاء – ط١ : ١٩٩١ – ص : ٤٨

بالطبع) وتلك التي تمثل الخاصية التمثيلية لممثل ما عن طريق تمثيل توازٍ في شيء آخر هي : الاستعارات" (١) . هذا بخصوص الممثل ، وقد سبق القول أن المؤول ما هو إلا علامة أكثر تطورا ويمثل موضوعة هي ممثل العلامة الأولى ، وهذا يعني إمكان أن يكون المؤول نفسه أيقونا كذلك . إذن يكون الأيقون ممثلا في موضعه الطبيعي من العلامة ، ويكون مؤولا عندما يكون المؤول على علاقة شبه بالممثل .. وهكذا . فإذا وضعنا الأيقون محل كل ممثل أمكننا أن نتعرف إلى أي مدى يمكن الأيقون أن يخترق كافة صور الأداءات السيميوطيقية .. حتى ليمكننا القول بأن كل موضوعة قابلة للتمثيل الأيقوني ، وكل ممثل قابل للتأويل الأيقوني .. وهكذا .

الاتصال وبنية الأيقون ..

إن بنية الأيقون هي هي بنية العلامة البيرسية : موضوعة – ممثل/أيقون – مؤول ، ثم ركيزة التمثيل ، غير أن وضع هذه البنية في فضاء الاتصال يمكننا من قراءة خاصة بالأيقون من بين بقية أنواع العلامات الأخرى. ولنبدأ من البداية ، فالرسالة هي موضوع الاتصال وليس العلامة ، نعم ، ولكن العلامة الأيقونية هي رسالة وليست مجرد علامة كما هو الحال في الرمز والمؤشر . إنها رسالة تمتلك كل ما تمتلكه الرسالة من مقصدية وبث وتقبل وللاثنين سياقهما ، ثم إنها تمتلك سننا مميزا لها . أما قناة الاتصال فأيا كانت فإنها ضرورة إن للعلامة أو للرسالة ، ولعل جوهر اعتبار العلامة الأيقونية رسالة يعود إلى أسباب منها : الأساس التشبيهي الذي تقوم عليه الأيقون . والإمكان غير المحدود لإنتاج الأيقون تمثيلا تأويلا

---

(١) محمد الماكري – المرجع نفسه – الصفحة نفسها .

وعدم اشتراط واقعية (موجودية) الموضوعة ، وإحالة معرفتها على ركيزة التمثيل .. فيما نعتقد أن السيميوطيقا – عموما – تقوم على افتراض لا يظهر داخل خطابها إلا عرضا وفي مواضع لا تتعلق بمصطلحاتها . هذا الافتراض هو الاتصال السيميوطيقي ، ولا يظهر حتى لا يدخل العامل الفـــردي إلـــى البنية المنطقية أو الجهاز المصطلحي فيتهدد كـــل شـــيء . والتحـــول مـــن السيميوطيقا إلى توظيفها لصالح خطابات أخرى يجب أن يتجلى فيه ما أخفي ، ما دمنا في دائرة مختلفة من الغايات . ومؤدى هذا أن العلامة الأيقونيـــة لا توجد إلا في فضاء اتصالي ، أكان فعليا أم كان افتراضيا ، وبحكـــم بنيتـــها القائمة على مبدأ إبداعي (بقدر ما) للتشابه بين شيئين ، فهي – في اعتقادنا – رسالة مكتملة لا تنقصها سمة من سمات أية رسالة ، بل إننا نعتقد أن العلامة الأيقونية لا يمكن فهمها إلا باعتبارها رسالة تامة مكتملة العوامل والوظـــائف ، كما يتوضح من المخطط التالي الذي يقوم على المزج بين بنيـــة العلامـــة ونموذج الاتصال اللغوي :

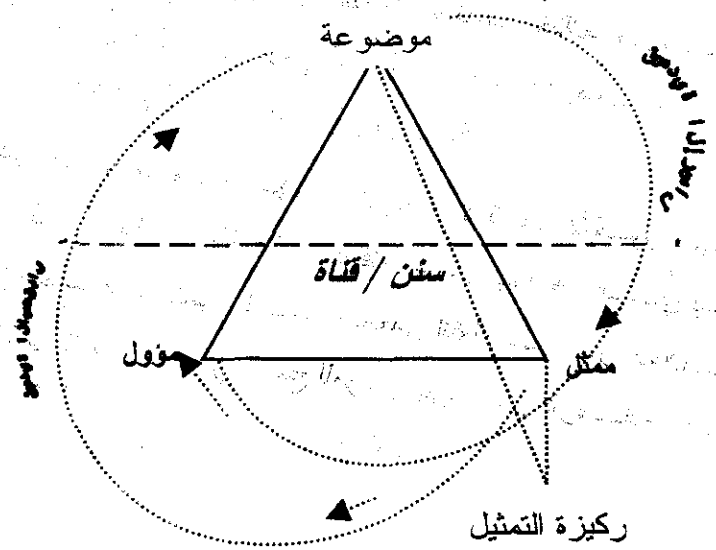

يمكننا أن نرصد عددا من الفروق بين العلامـــة والرســـالة ليمكـــن التعاطي مع المخطط السابق بما يحقق الغاية منه ، أهم هذه الفروق ما يلي :

١- العلامة لا تكتفي بذاتها ، فهي تنطوي على افتقار أصيل إلى سواها لتقوم بفعلها التدليلي . والأيقون علامة نعم إلا أنها لا تفتقر إلى سواها لتدل، بل هي تمارس فعلها التدليلي بمجـــرد وجودهـــا ، نظـــرا لعلاقتـــها بموضوعتها التي تمثل خطابا حاضنا لفاعليتها .

٢- العلامة تنطوي على بنية ، بينما الرسالة تقوم علـــى ســـنن أو شـــفرة ، والفرق بين البنية والسنن على قدر غاية في أهميته ، فالبنية محـــض تنظيم لعناصر وظيفته تأسيس وجود العلامة ، أما السنن فينطوي على البنية ثم ينطوي على نظام تحقيق الوظيفة . والأيقون يقوم على بنية ، ثم تتسع هذه البنية نفسها لتمتلك سننا يفعل عناصر البنية على أســـاس المبدأ الذي تقوم عليه الأيقون ، أعني المبدأ التمثيلي للموضوعـــة ثـــم جهة التمثيل ثم آلية تطوير هذا التمثيل إلى علامة (ربما تكون أيقـــون كذلك) أكثر تطورا . إن المبدأ التمثيلي مختلف اختلافا جذريـــا عـــن الإشاري في المؤشر والعرفي في الرمز ، وهو ما يجعل تفعيل البنيـــة لتصبح سننا أهم أسباب اعتبار الأيقون رسالة .

٣- على غير ما لطبيعة وجود المؤشر والرمز ، لا توجد الأيقـــون وجـــودا سابقا على الرسالة . وإذا كنا قد عرفنا المرسل بأنه هو الـــذي يقـــوم بإبداع ميكانيزمات تشفير الرسالة ، بمعنى انتقاء عدد مـــن العلامـــات التي تنتمي للشفرة ، والتي تسمح للمرسل بإرســـال الرســـالة ، فـــإن

الأيقون رسالة بكل ما تعنيه الكلمة/المصطلح . ويمكن التدليل على ذلك من جهة المستقبل كذلك .

٤- قلنا إن السياق يمكن أن يكون القدر الذي تحمله الرسالة من محيطها المعرفي والثقافي فيوفر إمكان تلق مناسب . والعلامة تفتقر إلى مثل هذا السياق إلا بدخولها ضمن رسالة ، بينما تنطوي الأيقون على ما يمكن اعتباره سياقا بالمفهوم السابق وتمثله ركيزة التمثيل .

إذن فالأيقون رسالة بما هي علامة في الوقت نفسه ، ومن ثم نراها تتوتر بين كونها علامة وكونها رسالة ، وهي - بهذه الطبيعة المتوترة - تؤسس لاختلافها وتميزها من كل من الرمز والمؤشر .. إلا أن السؤال : ماذا يمكن أن يضيفه لنا اعتبار العلامة الأيقونية رسالة ؟ .. قد أزعم أن حدود مفهوم ما هي إلا حصر ثقافي لدوره داخل ثقافته فحسب ، بحيث يكون نقله إلى ثقافة أخرى غير فاعل إلا عبر الخطاب الخاص به الذي يحدده مفهومه من هذه الثقافة ، وفي هذا خطر ما بعده خطر من التورط في تصورات الآخر عنا (وكل تصور لأنا عن آخر هو تصور محكوم بالتاريخ وطبيعة العلاقات التاريخية بينهما ، بما يجعله حكما غير موضوعي بامتياز) .. أما توسيع حدود مفهوم مصطلح ما فإنه يعمل على توهين علاقات المصطلح بثقافته ووضعه في بقعة عارية من الأيديولوجيا الأمر الذي يتيح توظيفه بلا تحفظات داخل ثقافة مغايرة .

سيميوطيقا التشبيه ..

ثمة وجه جامع ما بين الأيقون في السيميوطيقا ، وبين التشبيه في البلاغة ، حيث يمثل التصوير أساس قيام الأيقون وغاية بناء التشبيه . وقد

سبق أن رأينا كيف أن مفهوم الأيقون لا يتوقف عند حد التشبيه بل يغطـــي جميع الصور البيانية من مجاز وكناية واستعارة فضلا عن موضوع الدراسة : التشبيه . ولكن استكناه ذلك الوجه الجامع واستبصار المداخلات الأيقونيـــة على الصور البيانية بحاجة إلى خطاب تأسيسي لا يتوقـــف عنـــد الوصـــف الظاهري لوجوه الالتقاء والافتراق أو التشابه والاختلاف ، بل خطاب قـــادر على أن يقيم جدلا بنيويا ووظيفيا بين كل من السيميوطيقا والبلاغة العربيـــة على قاعدة الأيقون والتشبيه . يبدأ التشبيه من اللغة .. من قواعد اللغة ، بدءا من المعجم الذي يفور له عددا من الحروف البسيطة أو المركبة ، وكذا عـددا من الأسماء والأفعال ، ثم مرورا بالنحو فما التشبيه إلا تركيب لغوي تكفـل النحو بإقرار قواعده سواء كان تركيبا اسميا أو كان تركيبا فعليا أو كـــان – أخيرا – تركيبا جزئيا متعلقا بآخر اسميا كان أو فعليا . إذن يبدأ التشبيه مـــن اللغة .. من نظامها ، إلا أنه يفترق عنها إذا ما بحثنا في المقاصد والغايات ، حيث يتسع التركيب التشبيهي عن مجرد أداء المعنى من حيث مقاصده ، ثـــم هو يتسع عن تركيبه فاعلا في سياق وروده من حيث نواتجه . إن التشـــبيه يدخل في نسق تداولي نوعي حين يجوز بدلاليته حد تركيبه اللغوي موجـــها سياقه ، وقراءته كذلك ، توجيها يتواءم مع الأفق التصويري الذي افتتحه ، إذ ذاك نكون إزاء أداء جمالي بامتياز[1] .. ولكن كيف يبدأ التشبيه من اللغـــة ؟ إن اللغة لتجرد من قواعدها الفرعية عناصر للتوسع في الأداء ، لتتمكـــن –

---

(١) نعني بالجمالي انقطاع الأداء اللغوي عن أية أعراض غير مقاصده مما لابد لكـــل أداء لغوي من التحمل بها ، فوحده الأداء الجمالي يتمكن من ضبط لغته على هيئة مقاصده ، بينما تظل الأداءات اللغوية الأخرى مطروحة لمثل تلك الأعـــراض لا تملك لها دفعا عن خصوصيتها .. أعني مقاصدها .

في الأخير – من تأويل هذا التوسع بقواعدها مرة أخرى ، بما يؤكد على ثبات نظام اللغة ويضبط التحولات التي يمكن للأداء أن يجريها عليها . بيد أن الأداء الجمالي – إذ يستثمر ذلك التوسع – يعمل على بناء قواعده الخاصة فيفصل بين طبيعة التركيب ، وهو ما يخص اللغة ، وبين الإنتاجية الدلالية ، وهو ما تخص طبيعة هذا الأداء ، أعني جماليته .

المعطى اللغوي ..

لا تقدم اللغة أساليب بقدر ما تقدم مفاتيح لبناء هذه الأساليب تاركة لمقاصد كل أداء إبداع أسلوبه بتلك الأدوات ، ولعل أسلوبا لغويا لم تتسع له كل أقسام اللغة من حرف واسم وفعل كما هو الحال مع أسلوب التشبيه ، فمن أدواته ما هو حرف : "الكاف" ، "كأن" ، ومنها هو اسم : "مِثْل ، "مَثَل" ، "شِبْه" .... ، ومنها ما هو فعل : "يشبه" ، "يحسب" ، "يظن" ، "يماثل" . إلى هنا وتتوقف اللغة لتبدأ البلاغة . نود – بداية – التوقف أمام هذا التنوع في المعطى اللغوي أو المفاتيح الأسلوبية التي تقدمها اللغة لأسلوب التشبيه ، إذ لاشيء في اللغة بلا دلالة ، أو بمعنى أدق بلا فلسفة . إن اللغة ونظامها – في تصورنا – تمتلك خطابا عنها كامنا فيها ، فلتمييز المؤنث بعلامة في اسمه أو فيما يسند إليه له دلالته ، وللبداية بالفعل في الجمل الفعلية دلالته ، وتوزع الجمع على جمع قلة وجمع كثرة له – كذلك – دلالته .. إلى آخر ما نطلق عليه خطاب اللغة عن نفسها هذا الكامن فيها وتشير إليه طبيعة قواعدها . وهذا الخطاب لا يخص اللغة في ذاتها ، بقدر ما هو أكثر اختصاصا بمستعمليها ، هؤلاء الذين اقتضت أطوار حياتهم وأنماط إنتاجهم وطبيعة علاقاتهم بعالمهم وبأنفسهم فضلا عن مقامات تواصلهم فيما بين بعض بعضا أن تكون لغتهم على ما هي عليه . وإذا كان الأمر كذلك فإن

وجود أكثر من أداة للتشبيه في العربية له دلالة ، وكذلك لتوزع هذه الأدوات على أقسام اللغة جميعا دلالة .. فما هي هذه الدلالات التي يمكن استخلاصها من ظاهرة كثرة أدوات التشبيه في العربية وتنوعها ؟ .. أما التشبيه ففي معناه العام علاقة صفاتية تقوم بين شيئين على سبيل تمثيل أحدهما بالآخر للوفاء بتصور الذات له ، ومن ثم فهو يقوم على أساس تفسيري لظاهرة تصورها الذاتي أو الشخصي أوسع مما لها في أصل اللغة ، وبناء على هذا الذي سبق يمكن رصد عدد من الأسس الفلسفية التي يقوم عليها التشبيه في أية لغة :

١. ثمة أشياء (واقعية أو متخيلة) لا تحيط بها اللغة وصفا .

٢. التجربة الذاتية أوسع من اللغة .

٣. التشبيه مفهوم علائقي .

٤. التشبيه ذو نزوع وصفي تمثيلي .

وما تعدد أدوات التشبيه في لغة ما إلا تأكيد على فرط محاولة الذات التعرف على عالمها/عوالمها ، أكانت عوالم واقعية أم عوالم متخيلة . وحين تفترش أدوات التشبيه مساحة الأقسام اللغوية فما ذاك إلا انعكاس إبداعي لتلك المحاولة على اللغة بما خلق كل هذه الأدوات بكل أنواعها . يمكننا القول أنه ثمة استجابة (شرطية) للغة . لكل لغة ، تجاه حركة الذات في العالم فتقلص بعض توسعاتها وتوسع بعض ما ضاق منها على هيئة تلك الحركة . ويظل الجميع ، ما ضاق وما اتسع ، في حدود النظام اللغوي ، حتى إذا ما تمكنت الواقعة الأدائية من امتلاك خصوصيتها أسلوبا ووظائف تحركت لامتلاك خطاب أشد لصوقا بخصوصيتها . وإذا كان التشبيه يبدأ من اللغة ، فإن

خطابه له انتماءان آخران ، انتماء عام إلى البلاغة ، وانتماء خاص إلى باب البيان منها.. وأما البلاغة فثمة مفهومان لها ، الأول : باعتبارها حكما على الخواص الصياغية سواء هذه المتعلقة بالمخاطِب أو المتعلقة بالخطاب نفسه . والآخر : وفيه تضاف البلاغة إلى مفردة "علم" لتشير إلى كونها حقل ملاحظة لمجموعة من الظواهر اللغوية ذات أنساق محددة فيما يخص الخطاب وتمتلك تأثيرات نوعية خاصة بالمخاطَب . وأعتقد أنه لا فرق بين المفهومين فليس الأول إلا وصف لما تحققت فيه شروط الثاني . ومن ثم لم ينشغل القدماء بهذه التفرقة بل انصرفوا مباشرة إلى تعريف البلاغة .. وسنكتفي بما عند "الخطيب القزويني" (لدلالته على ما لدى غيره من سابقين ولاحقين على السواء) – : "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع .. فالبلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب" [١] .. ثم يضيف "الخطيب القزويني" : "وللبلاغة طرفان : أعلى ، إليه تنتهي ، وهو حد الإعجاز وما يقرب من . وأسفل منه تبتدئ .. وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة " [٢] .. إلى هنا ولا نملك إلا الموافقة على هذا التعريف الذي تواضع عليه البلاغيون مفهوما للبلاغة ، إلا أن ثمة معيارا اعتمده "القزويني" لقسمة علوم البلاغة ، أعني معيار الاحتراز من الخطأ[٣] ، حيث يقول : "إن

---

(١) عبدالمتعال الصعيدي – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة – مكتبة المعارف – الرياض – ١٩٩٩ – الجزء الأول – ص : ٢٠ ،.. ، ٢٢ بتصرف

(٢) عبد المتعال الصعيدي –نفسه – ص : ٢٣

(٣) أغرب ما يمكن أن نلحظه أن العلماء العرب عزوا نشأة العلوم اللغوية وما تماس معها جميعا عزوه إلى شيوع الفساد ، أو الخطأ ، وهو تصور لا نستطيع الموافقة عليه ، فالعقل محكوم عليه بالتفكير ، ولا يتوقف عن فاعليته لمجرد أن الخطأ أو الفساد لا وجود له . راجع مثلا ابن خلدون في مقدمته .

البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره .. وما يحترز به عن الأول – أعني الخطأ في تأدية المعنى المراد – هو علم المعاني . وما يحترز به عن الثاني – أعني التعقيد المعنوي – هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع" [١] .. ثمة ما نلحظه في أفق التعريفات السابقة ، أعني غياب مفهوم "الجمال" عن (علم) "البلاغة" ، وهو غياب يبرره النزوع التقعيدي الذي ابتدأه "السكاكي" صاحب "المفتاح" نفسه ، ويفسر هيمنة مفهوم عقلي أصلا هو "التقريب" على المفهوم الجمالي الذي نعتمده ها هنا وهو "التمثيل" . مع تقريب المشبه بواسطة المشبه به نكون إزاء عملية تشبه الحجاج العقلي وإن لم تكنه ، ومعه تنسحب – بلا شك – أدنى فاعلية للصورة أو للأبعاد التصويرية على الأقل في فهم ظاهرة التشبيه ، بل وفهم كثير من وقائع تحققها ، وبالطبع لا يَتَوَقّع أن نلتقي حكما جماليا على صياغة أوجدها مجرد الاحتراز من الخطأ ، وإن في مطابقة الكلام لمقتضى الحال . إن ما تورط فيه الخطاب البلاغي القديم ، وهو كثير ، يعود – غالبا – إلى استخدامه مفاهيم ربما تمتعت من قبل بتواضع عليها ، بينما هي تثير عديد من المشكلات المعرفية الآن على ضوء ما تحقق في نظريات اللغة ونظريات النقد وحتى فلسفات الجمال ، هذا فضلا عن فلسفات العلوم . ومفهوم المعنى – ها هنا – مسئول إلى حد كبير عما يقوم بوجه "الاحتراز من الخطأ سواء على المستوى التركيبي أو المستوى المعنوي من إشكالات [٢] إن وقائع

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – نفسه – ص : ٢٤

(٢) قد تنبغي مراجعة مفهوم "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" على ضوء قيام احتمال أن

البلاغة – سواء انتمت إلى علم المعاني أو إلى علم البيان – هي محض جزء من كلام/رسالة ، كما إنها ليست حاملة لمعنى الكلام / الرسالة ، بل حاملة لمعناها هي ، ويظل هذا المعنى رهن التحولات التي يمكن أن ، يفرضها عليه السياق إلى أن يكتمل الكلام/ الرسالة . وربما كان أهم هذه التحولات – من منظور جزئية معناها في إطار المعنى الكلي/النصي – هو تحوله – أعني معنى الواقعة البلاغية – إلى وظيفة . وبناء على هذا لا يمكن أن يكون الجزئي/الوظيفي حاكما على الكلي/النصي ، ولئن كان القزويني ، وغيره من المتقدمين عليه والمتأخرين عنه ، قد ذهب إلى أن البلاغة صفة للفظ باعتبار إفادته للمعنى عند التركيب ، فإن المعنى الكلي/النصي يجب أن يكون ضابط هذه الصفة ومعيار الحكم على مدى نجاحها في أداء وظيفتها ، فهذا ، وهذا وحده ، يمكن أن يخرج بلاغتنا القديمة من دائرة الاتهام (الظالم في تعميمه) بالجزئية من جهة وبالشكلية من جهة أخرى . فإذا ما أتينا إلى الانتماء الثاني والأشد خصوصية للتشبيه ، أعني الانتماء إلى علم البيان ، وجدنا تعريف

يتعمد المخاطِب مجاوزة ما يقتضيه المقام ، كما في كثير من مدائح "المتنبي" لكافور على سبيل المثال ؟ إن ذلك المفهوم البلاغي على قدر كبير من الأهمية إذ وحده في تراثنا يربط بين الرسالة والمقام الاتصالي الذي تُتداوَلُ فيه ، إلا أن تحويله إلى معيار للصواب والخطأ في أداء المعنى تقوم إزاءه عديد من الإشكالات ، لعل أهمها أولية المعنى على اللفظ وانفصاله عنه . هذا فضلا عن حاكمية المعنى على اللفظ . وليس آخر هذه الإشكالات المطابقة الغريبة بين قصدية المرسل ومقامه الاتصالي عند بث مرسلته . إن بمكنة مطابقة الكلام لمقتضى الحال أن يصبح تفعيلا لمفهوم السياق بالمعنى الاصطلاحي الحديث له في تطوير فهم الرسالة بدلا من الحكم على الواقعة البلاغية فيها ، إذ هو يشمل ما هو بلاغي في الرسالة وما ليس بلاغيا ، إذ الرسالة بأكملها تقع في دائرته . الباحث .

هذا الأخير محددا بدقة شديدة إلى حد غياب أدنى أثر للاحتراز من خطأ التعقيد المعنوي سواء في صياغة التعريف أو في مفهومه ، يقول القزويني : "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .. ثم إيراد المعنى الواحد على الوجه المذكور (أي بطرق مختلفة في ..) لا يتأتى بالدلالة الوضعية"[١] .. بداية ، التزم بعض شراح التلخيص من غير القزويني بالاحتراز من الخطأ في فهم الطرق المختلفة في إيراد المعنى الواحد جاعلين من علم البيان علم إيراد المعنى بطريقة واضحة الدلالة ، ولعلهم كانوا يريدون لتلخيص القزويني أن ينسجم بعضه مع بعضه ناظرين إلى انسجام خطابه وتماسكه . والبعض الآخر ذهب إلى أن الخروج من دلالة اللفظ الوضعية يفتح آفاق استخدامه بطرق مختلفة ويطرح قضية الوضوح والغموض باعتبارهما حدي هذا الاختلاف دونما أدنى حكم قيمي بالصواب أو الخطأ . وهذا الفريق الثاني كان ينظر إلى الكتاب الأصل الذي عليه قام تلخيص القزويني ، أعني كتاب "المفتاح" للسكاكي الذي نص في تعريفه على كون علم البيان : "معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لذاته"[٢] .. ولعلنا نتوقف بكثير من الإعجاب والدهشة أمام هذه الفلتة (النكتة بالمفهوم العربي لها) المفهومية والتي لم يتابعها لا صاحبها ولا غيره ، أعني "مطابقة الكلام لذاته" التي تتطابق مع أشهر تعريفات الشعرية poetics في الخطاب النقدي (الغربي) الحديث ، فإذ يطابق الكلام ذاته

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – الجزء الثالث – ص : ٣ ، ٤ ، .. ، ٥

(٢) السكاكي – المفتاح – دار الكتب العلمية – بيروت – ص : ٧٠ ، ويراجع كلامه في هذا التعريف ص : ١٤٠ ، ١٤١

يصبح هو معيار نفسه ، وإذ يكون الأمر على هذه الوضعية ، فـــلا معنـــى للحكم بالصواب أو بالخطأ وإنما العبرة بالتحليل واكتشاف العلاقات واستكناه إنتاجيتها الدلالية ، بلغت من الوضوح أو الغموض ما بلغت[١] .. المـــهم أن فهمنا لتعريف علم البيان ، على ضوء مطابقة الكلام لذاته ، إنمـــا "يحصـــر مباحث هذا العلم في دائرة الصياغة الأدبية التي تتجاوز دائرة المواضعـــة ، ذلك أن هذه الدائرة الأخيرة .. لا تحتمل اهتزاز الناتج الدلالي" [٢] بينما يمكن إرجاع أدبية الصياغة الأدبية إلى طبيعة ناتجها الدلالي الـــذي يتـــأبى علـــى الثبات ويتمرد على التثبيت . وأما أقسام علم البيان فمحددة بدقـــة لا مزيـــد عليها ، ومنظور فيها إلى مجاوزة الدلالة الوضعية للفظ هذا الذي "إن قـــامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز ، وإلا (أي في حالـــة غيـــاب القرينة) فهو كناية ، ثم المجاز منه الاستعارة ، وهي .. تُبْتَنَى على التشـــبيه .. فانحصر المقصود في التشبيه والمجاز (الاستعارة) والكناية"[٣] فمجـــاوزة الدلالة الوضعية قاعدة أساسية في تعريف علم البيان وفي تقســـيم أبوابـــه ، وهذا ملمح لا يجب المرور عليه ببساطة وجوده في كتب البلاغة العربيـــة ، بل يجب التوقف إزاءه ، والتوقف الطويل الملائم لتقدم التصور البلاغي عـــن

---

(١) إن مفهوم مطابقة الكلام لذاته يمكن أن نلحقه بمفهوم مقتضى الحال لنشير بـــهما إلى طائفة كثيرة جدا من المفاهيم البلاغية التي يمكن بها بنـــاء خطـــاب حديـــث لبلاغتنا القديمة تمنعنا من التورط الكامل (الاستلاب) في الخطاب الغربي وتصلنـــا – في الوقت نفسه – به ، صلة ضابطها تراثنا ومفاهيمه .

(٢) د. محمد عبد المطلب – البلاغة العربية قراءة أخرى – لونجمان – القـــاهرة – ط١ : ١٩٩٧ – ص : ١٢٨

(٣) د.أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغيـــة وتطورهـــا – المجمـــع العلمـــي العراقي – بغداد – الجزء الأول – ١٩٨٣ – مادة : البيان – ص : ٤٠٩

المصطلح الذي لم يرد في الخطاب البلاغي القديم ، أعني مصطلح "الجمال" .. بداية ، فالجمالية ، أو فلسفة الجمال ، مسألة مفتوحة ، وكونها هكذا فهي – دوما – سؤال يتوالد . وجواب العقل هو– بدوره – فتح لأبعاد جديدة . إنها مسألة متحرّكة ومحرّكة في آن معاً ، ومن ها هنا جدليّتها الدائمة إنْ في مقوّماتها التي تفلت من المعايير أو في أبعادها ، كونية cosmic كانت أو فوق كونيةcosmic – meta . ومن ثم تعددت مفاهيم الجمال في الفكر الغربي منذ أفلاطون ووصولا إلى أحدث الفلاسفة . على أننا نختار من بين جميع تعريفاتهم تعريف فيلسوف "الوجودية" الكبير "جان بول سارتر" الذي يرى " أن الموضوع الجمالي موضوع متخيل فهو لا يكون ولا يدرك إلا بفعل ذلك الوعي المتصور الذي يضعه باعتباره لا واقعيا . والخيال هو الوعي بأسره من حيث هو قادر على تحقيق حريته . كما يعتقد أن الموضوع الجمالي أشبه ما يكون بنداء يوجهه الفنان إلى المتذوق، مهيبا بتخيله أن يعمل عمله من وراء إدراكه الحسي . وليست مخيلة المتذوق مجرد وظيفة تنظيمية تقتصر على تنسيق الإدراكات الحسية ، بل هي وظيفة تركيبية تقوم بعملية إعادة تكوين الموضوع الجمالي ابتداء من تلك الآثار التي خلقها الفنان" (١) هذا التعريف الوافي للجمال والجميل وتلقيه وفاعلية الخيال في صناعته وإدراكه ، يمكنه أن يتطابق إلى حد كبير مع الخطاب البلاغي الذي غاب عنه مفهوم الجمال . إن تجاوز الدلالة الوضعية للفظ يفتح علم البيان ، بأبوابه كلها ، على الملكة الفاعلة في ربط دلالة لفظ ما بلفظ ليس لها في أصل الوضع اللغوي ، أعني الخيال . وحين يتعلق الأمر بدخول هذا اللفظ

---

(١) ماجد محمد حسن – مفهوم الجمال بالفكر الغربي – العدد:٩٨٩ – http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp –٢٠٠٤/١٠/١٧

في علاقات تركيبية مع سواه اعتبارا للدلالة الجديدة ، نصبح إزاء موضوع متخيل (جمالي) يحتاج إلى فاعلية للمتلقي في إعادة بناء الموضوع الجمالي . وإذا كان البلاغيون قد وضعوا إزاء الدلالة الوضعية الدلالة العقلية كتجاوز لها ، على حد قول القزويني : "ثم إيراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية .. وإنما يتأتى بالدلالة العقلية"(١) فليس مراده ما هو نقيض الخيال ، بل يعني به الوعي المتصور ، تماما كما عند سارتر . ما نريد أن نتوصل إليه في الأخير أن علم البيان موضوعه فاعلية الخيال في بناء موضوع جمالي بواسطة لغة لا تنتمي إلى مواضعاتها بقدر ما تنتمي إلى المبدأ التركيبي الذي يعتمده الخيال في تضفير عناصر موضوعه ببعضها بعضا . ما نريد أن نؤكد عليه هو كلية الموضوع الجمالي الذي تشكل الواقعة البلاغية البيانية أسه البنيوي ، سواء في إبداعه أو في تلقيه . وحركة الخيال في هذا الصدد تعمل على اتجاهين ، اتجاه يؤكد على نفي الدلالة الوضعية منة خلال تضمين نسيج موضوعه قرينة تمنع هذه الدلالة من الحضور في فضاء موضوعه فضلا عن فعلها في تلقيه ، وهذا ما يسميه البلاغيون "القرينة" . هنا نكون إزاء المتخيل الخالص أو "المجاز" ، ومن المجاز "الاستعارة" التي تقوم ، في الأصل ، على أساس بنية تشبيهية عميقة . ولأنه الخيال ، ولأن الخيال يمارس فاعليته بالشيء ونقيضه ، حيث لا يستعصي سلوك أحدهما أو الجمع بين كليهما في نسق ، فمن طرقه ، أعني الخيال ، أنه ينتج موضوعه بلغته الخاصة دون أن يضمن بنية موضوعه الجمالي تلك القرينة التي تنفي الدلالة الوضعية لا من فضاء صياغة الموضوع ، ولا من توجيه تلقيه ، وهنا نكون أمام نمط جمالي آخر يعتمد

---

(١) عبد المتعال الصعيدي – الجزء الثالث – ص : ٥

توتير صياغة الموصوع الجمالي بين الدلالتين كما في الكناية [1] .. المهم أن البلاغيين الذين أقروا بكون الاستعارة مجاز وهي تقوم – في الأصل – على التشبيه ، اختلفوا هل هذا الأصل مجاز كما بني عليه ، أم أنه لا ينتمي إلى دائرة المجاز ؟ كعادة أسلافنا استوفوا جميع المواقف الممكنة في هذه القضية ، فمنهم من رآه مجازا ، كابن رشيق وابن الأثير . ومنهم من نفى كونه كذلك ، كالجرجاني والزركشي والزنجاني . ومنهم من توسط بين الطرفين فأقر الأول في بعض أنواع التشبيه ، وأقر الآخر في الأنواع الأخرى ، وذلك على قاعدة وجود أداة التشبيه ، فوجودها ينفي التشبيه ، عنده ، من دائرة المجاز ، وغيابها يدخله فيها كصاحب "البرهان في علوم القرآن" . وثمة موقف رابع لم ير في هذا الخلاف طائلا ما دامت بلاغة التشبيه ثابتة له . أما نحن فنرى ما يراه د.أحمد مطلوب من أن "التشبيه مجاز ، لأنه يعتمد على عقد صلة بين شيئين أو أشياء لا يمكن أن تفسر على الحقيقة ، وإن فسرت كذلك لأصبح كذبا"[2] .. فقولنا – على سبيل المثال – : زيد كالأسد في الحرب ، يقيم علاقة تمثيلية تتجه من الأسد إلى زيد ، وهو تمثيل مجازي يهز مواضعات وجود زيد الإنسانية ، كما يهز مواضعات وجود الأسد الحيوانية ، بما يسمح بتقارض المكونات الدلالية بين الاثنين على قاعدة "البأس والشجاعة" منتقلة من الأمكن فيها إلى الأقل تمكنا ، دون أن يكون للحقيقة أية مداخلة على هذا التمثيل . إن ناتج التشبيه السابق صورة متخيلة تماما أو لنقل مجازية تماما ولا علاقة لها بحقيقة زيد موضوع التمثيل . ثم السؤال الأكثر دخولا في إشكال مجازية التشبيه أو لا مجازيته

---

(١) لهذا موضع بحث آخر نقوم عليه بعنوان "شعرية الكناية" . الباحث .

(٢) د.أحمد مطلوب – الجزء الثاني – ص : ١٧١ ، ١٧٢ .

هو : كيف تكون الاستعارة مجازا وأساسها التشبيهي ليس كذلك ؟ وبـــالرغم من المواقف التراثية الأربعة لم يطرح أحد هذا السؤال . فتبنينا للامجازيـــة التشبيه ، على سبيل الجدل ، وهو – أي التشبيه – أساس الاستعارة ، سيزيح المجاز من دائرة البنية الاستعارية ، بما يجعل السؤال الأكثر صعوبـــة هـــو ماذا يجعل الاستعارة مجازا إذا ما غضضنا النظر عن بنيتها ؟ ونظرة أولـــى للمخطط التالي يمكنها أن ترينا كيف أن إخراج التشبيه من دائـــرة المجـــاز ينطوي على تعسف مسئول عنه التصور العقلـــي لوظيفـــة التشـــبيه أعنـــي التقريب وليس التمثيل .

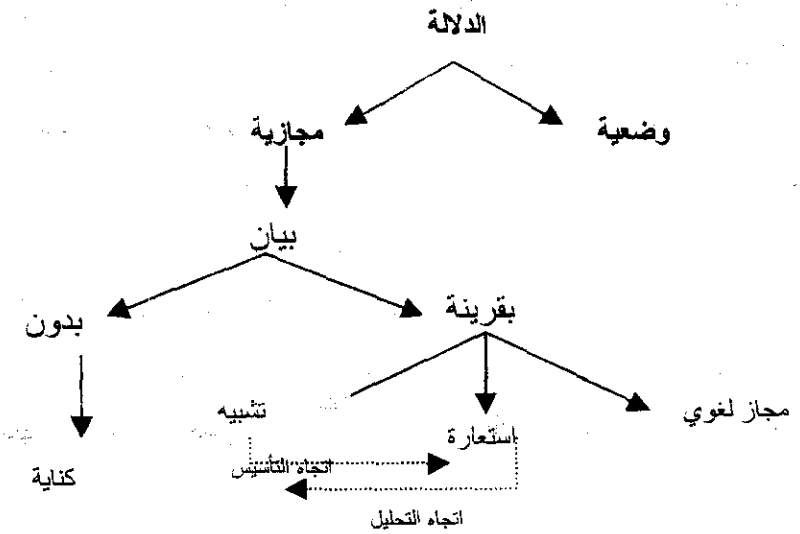

فإذا ما أضفنا الفارق الذي يتميز به المجـــاز اللغـــوي مـــن مجـــاز الاستعارة ، أعني علاقة المشابهة في الاستعارة بين المستعار والمستعار له ، بينما تكون علاقة ما بين دلالة اللفظ والدلالة التي جاز إليـــها أي شـــيء إلا علاقة المشابهة ، لم يكن من المتصور أن ما يميز مجاز الاستعارة هو نفســـه ما يخرج التشبيه من دائرة المجاز . في رأينا أن فهم التمثيل الخيالي فـــي

كل من الاستعارة والتشبيه يمكن أن يثبت مجازيه الآخر ، وليس فقط امتحان الناتج على معيار الحقيقة والواقع . ولتتضح مقاصدنا مما سبق ، نأتي إلى تعريف التشبيه ..

التشبيه لغة ..

يقول ابن منظور : "الشِّيْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيه : المِثْلُ ، والجمع : أشباه . وأَشْبَهَ الشيءُ الشيءَ ماثَلَهُ .. والتشبيهُ التمثيلُ "[1] وقد مر بنا أن جميع الصيغ الصرفية لمادتي "م ث ل" و "ش ب ه" هي أدوات تشبيه ، بما يوحي بالعلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي ، هذا فضلا عما سبق أن قلناه من كون التشبيه يبدأ من اللغة وإن اتسع عنها بعد . ويضيف الراغب الأصفهاني إلى المفهوم التمثيلي للتشبيه مفهوم الكيفية بقوله : " شِبْهُ : الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ : حقيقتها (-أي الصورة) في المماثلة من جهة الكيفية ، كاللون والطعم ، وكالعدالة والظلم . والشُّبْهَةُ هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان أو معنى"[2] .. واضح مما سبق أن المعنى اللغوي للتشبيه باعتباره تمثيلا من جهة الكيفية يلتقي إلى حد كبير مع مفهوم الأيقون خصوصا ، كما يلتقي – كذلك – مفهوم الصورة عموما .

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – دار المعارف – القاهرة – المجلد الرابع ، مادة : شبه – ص : ٢١٨٩

(٢) الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – تحقيق : محمد سيد كيلاني – البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الأخيرة – ١٩٦١مادة : شبه – ص : ٢٥٤

التشبيه اصطلاحا ..

يلاحظ البلاغيون الفارق الأساسي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ، فيقول أحد شراح تلخيص القزويني : "التشبيه في اللغة جعل الشيء شبيها بآخر ، والتشبيه الاصطلاحي ليس فيه ذلك ، بل فيه ادعاء التشبيه أو اعتقاده مجازا"[١] بمعنى أن المعنى اللغوي يلتقي المعنى الاصطلاحي للتشبيه على قاعدة التمثيل ، ثم يفترقان من منظور آخر . فالمعنى اللغوي يتحدث عن تشابهات قائمة أصلا دون إرادة للذات في وجودها ، أما المعنى الاصطلاحي فإنه يشير إلى تشابهات مصنوعة صنعا ، وكأن التشبيه ليس مجازا يحدث في اللغة فقط بل هو مجاز يُحدث أثرا في العالم وموجوداته عبر اللغة .. يحدث علاقات (تماثل أو تشابه) جديدة في العالم . وهذا يستلزم ضرورة وجود قرينة ، إذ إن أداة التشبيه أيا كان نوعها تتمتع بقدر من التعميم الأمر الذي قد يؤدي إلى تطابق المشبه والمشبه به ، وهذا من باب المحال ، إذ إن التطابق التام يجعل الشيئين شيئا واحدا ولا يشبه الشيء بنفسه . إن التشبيه يعمل على محورين ، الأول محور التشابه المدعى للمشبه مع المشبه به في وجه أو آخر . والمحور الآخر : محور تثبيت وجوه الاختلاف الأخرى بين الطرفين . من العمل على هذين المحورين يتولد جمال التشبيه أصلا ، ولكن من الضروري وجود ما يضبط عمومية أدوات التشبيه ليمنع تداخل المحورين . تقوم القرينة بهذه الوظيفة ونسميها "القرينة المرشحة" التي ترشح وجه/ وجوه الشبه بين طرفي التشبيه . وتمثل القرينة المرشحة لوجه الشبه المرتكز التأويلي (كما في العلامة

---

(١) بهاء الدين السبكي – شروح التلخيص – دار السرور – بيروت – د.ت – المجلد الثالث – ص : ٢٩٢

البيرسية) لتمثيل المشبه بالمشبه به . فإذا ما عدنا إلى التعريف التراثي : "التشبيه : الدلالة على .. " ، أمكننا أن ندعي على التشبيه بأنه فعل دلالي داخل سياق مثله مثل العلامة تماما ، وفاعليته الدلالية تنبثق من كونه يمتلك موضوعته : المشبه ، وممثلها : المشبه به ، وركيزة التمثيل : القرينة المرشحة الحاملة لوجه/ وجوه الشبه ، ومؤولها /الفاعلية الدلالية للتشبيه أو الغرض منه . إن درجة التطابق بين العلامة ، كما هي عند بيرس ، وبين التشبيه ، كما هو في تراثنا ، تصل حد الإدهاش ، فإذا حكّمنا البعد التصويري أو التمثيلي للتشبيه في تحديد نوع العلامة ، كانت الأيقون هي العلامة المطابقة للتشبيه : اصطلاحا ، بنية ، وظيفة على السواء ، كما يبين المخطط التالي :

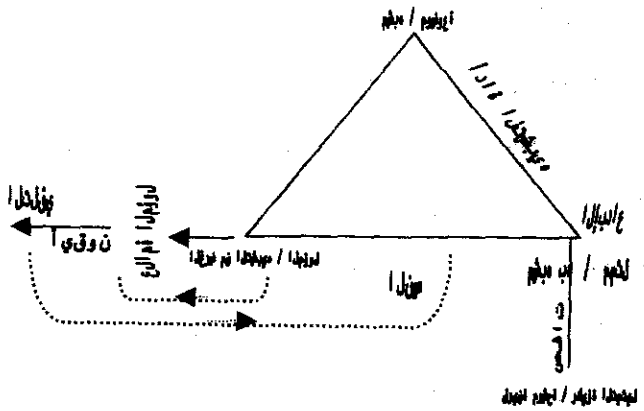

إن ما يجعل دال المشبه موضوعة هو الاحتياج الذي يفرضه عليه السياق للدخول في علاقة تمثيلية مع دال آخر يمنحه صفة أو بعضا من صفاته ليمتلك مدلوله . ونظرا لأن هذه العلاقة مفروضة أصلا ، أي مدعاة ، استتبعت وجود دال ثالث يلعب دور المرشح لاحتياج الدال الأول/الموضوعة من الدال الثاني/الممثل . ويكون من نتائج هذا الترشيح إزاحة الناتج الدلالي

من مجرد علاقة الدال الأول بالثاني ، مما يدفع بالعلاقة تجاه السياق ، لا لينتج دلالته ، بل ليمارس فعلا سيميوطيقيا (تدليليا) فيه ، فلا يمتلك فقط مؤوله أو مدلوله ، بل يمتلك ممثلا أيقونيا جديدا يضم جميع علاقاته في بنية أكثر تطورا من الأولى . ولا يتم كل هذا داخل الأيقون / التشبيه / الرسالة بل إن مما يتميز به التشبيه كعلامة / رسالة أنه لا تتم بنيته إلا داخل مقام اتصالي مكتمل أي على الخط – النص الواصل بين عملية الإبداع وعملية التلقي . فلئن كانت بنية التمثيل تحدث على جانب الإبداع فإن فاعليات التأويل تتم على جانب التلقي ، كما في المخطط السابق ، ولئن كانت البنية الأيقونية للتشبيه تكتمل بإبداعها فإن كمالها الوظيفي لا يكتمل إلا عبر التلقي ، ومن ثم فإن مفهوم التأويل الذي اشتق منه مصطلح المؤول لا ينطبق على العلامة بكامل اصطلاحه انطباقه على التشبيه . إن أي أداء لغوي ينتهي إلى ضرورة تأويله من طرف المتلقي هو أداء جمالي ، فوحده الجميل ووحدها طبيعته يتبديان وكأنهما استشكالا إبداعيا على مادة صياغته التي منها تشكلت . وحين تتجلى جمالية الأداء اللغوي في إنتاج صورة نكون إزاء أقصى ما يمكن أن يبلغه ذلك الأداء في استشكاله على اللغة ، إذ يدفع الأصوات والكلمات وقواعد تعليق بعضها ببعض وإسناد بعضها إلى بعض ، يدفع جميع هذا لتعليق المعنى بدلا من إنتاجه ، ومن ثم دفعاها دفعا للعكوف على تشكيل صورة ينوط بتأويلها مسألة المعنى . وإذ يتم هذا داخل سياق لرسالة أكبر لها مقاصدها ، يضاف التعقيد إلى خصائص جمال الأداء اللغوي . ولسنا – بالتأكيد –نعني ما تحدث عنه البلاغيون من تعقيد معنوي ذلك الذي عدوا علم البيان على جلال قدره احترازا عن التورط به ، إنما نعني به أن تتعدد أنظمة إنتاج المعنى داخل الرسالة الواحدة ، وهنا تتأكد ضرورة التأويل

بحجة ثانية . والأداء الجمالي للغة هو اتصال مضاعف ، وفي الوقت نفسه نموذجي ، حيث لا يكتمل بمجرد بث الرسالة ، بل إن خصوصية الرسالة (جماليتها) تبقى معلقة على وعي التلقي الذي يجد نفسه منغمسا كليا في عملية مكافئة لعملية البث ووفق مقاصدها كذلك . إن الأداء الجمالي للغة له محدداته بالنسبة لفاعلية تلقيه ومثال متلقيه . وهذا الأمر ، إذا كان ينمذجه اتصاليا ، فإنه يتمتع بكونه أثرا مفتوحا دائما ، بمعنى أن إنتاجيته لا تنغلق دلاليا مطلقا ، أي أنه متعدد واحتمالي ونسبي إلى أقصى درجة . وكل جزء منه يحمل هذه الصفة المركزية من منظور جماليته ، غير أن هذا الجزء ليس كذلك إلا بفضل موقعه البنيوي من الكل ووظيفته داخل نظامه . فإذا ما التفتنا إلى التشبيه/الأيقون البياني وجدناه واقعة بلاغية لا يخلو منها أداء لغوي أيا كان نوعه ، فدائما ما يحتاج المتكلم إليه لتأدية مقاصده ، والتشبيه في الأداء العادي ليست لهى أية قيمة جمالية ، فهو يقوم بدور شبيه بالحجاج التمثيلي على معنى متقدم . والأمر في الأداء الجمالي على العكس تماما ، فبينما هو – في الأول– محض ملحق تمثيلي يضاف إلى المعنى ، فإنه في الثاني منشبك بشبكة علاقات النص يتبادل مع عناصرها معها السمات والوظائف . معنى هذا أن الأيقون البياني ذاك – مثله مثل أية علامة – لا يحكم عليه بالجمالية لمجرد وجوده ، إنما يستمد صفته هذه من طبيعة الوظيفة المعلقة به في سياقه النصي ، ومن اتجاه تعلقه ..هل يتعلق بما قبله فحسب ، أم أنه يتعلق بما قبله تعلقه بما بعده ؟ .. هل دوره دور توكيدي أو حجاجي في سياقه أم أن له دورا سيميوطيقيا يتعدى بنيته إلى عملية تدليل موسع .. إن لجوء اللغة الأدبية إلى تفعيل دور الرمز SYMBOL (اللغوي) من خلال تركيب ليبني أيقونا يتم تحت ضغط أزمة للسياق القبلي لم يكن لهذا

الرمز مهما كان التركيب الذي يدخل فيه محتفظا بهويته العرفية أن يحلها ، فإما أن يتوقف السياق عن الامتداد بالرسالة إلى غايتها ، أو يعدل السياق من طرائق امتداده عبر واسطة مغايرة لعلامات SIGNS الأزمة ، فيكون التحول إلى التشبيه باعتباره التركيب القادر على تحويل الرمز SYMBOL إلى أيقون ICON .. يمكننا إيجاز عدد من النقاط فيما يخص التشبيه ..

١- التشبيه في ذاته لا يوصف بالجمالية أو غيرها ، إنه محض بنية لغوية، مكتملة نعم ، ولكنها لا تستمد صفتها الأدائية من ذاتها ، بل من نصها. فجمالية التشبيه صفة مسقطة من نصه عليه .

٢- جمالية التشبيه تعني تمتعه بخاصية التكافؤ التي تحدث عنها "جاكوبسون" في تعريفه للشعرية . بمعنى أنه – بالرغم من تمايزه الأيقوني داخل سياقه – مكافئ لجميع عناصر سياقه وإن كانت من نوع علاماتي مختلف . إن التكافؤ المسقط من محور الاختيار على التشبيه في محور التوزيع له ناتج على قدر كبير في الأهمية يتمثل في اعتبار التشبيه بمثابة عنصر لغوي بالرغم من كونه تركيبا يتمتع باستقلال بنيوي .

٣- وظيفة التشبيه رهن بمستويات تكافؤه مع عناصر سياقه الأخرى ، فالتكافؤ الذي تحدثنا عنه سابقا ، لا يتم على مستوى واحد ، نظرا لخصوصية التشبيه ، وكذلك رهن بفاعليته السيميوطيقية في سياقه . ولئن كانت البلاغة العربية قد أولت عظيم الاهتمام لبنية التشبيه وعناصرها واحتمالات نوع كل عنصر ، فإنها قد أهملت – تماما – وظيفة التشبيه ، نظرا لتوقفها عند حدود الشاهد وولعها بالتحليل شديد

الدقة لاستنباط المقولة ، إن لم نقل القاعدة ، الضابطة للظاهرة التشبيهية . لقد اهتمت البلاغة العربية بالتشبيه كبنية ، أي كعلامة لا يمكن وصفها بالجمالية ، أو لنقل بالشعرية ، دون أن تلتفت عن أنها لا تقصد لذاتها ، على حد تعبير العقاد ، وإلا لكانت محض ترف لغوي ومجرد تكلف من التزيد النقدي التفتيش تحته عن صورة تحفز السياق وتعيد إليه حيويته .

سياقات التشبيه ..

المبدأ السيميوطيقي الأساس أنه ليس ثمة علامة توجد في فراغ وتظل علامة .. العلامة علامة لأنها توجد إزاء أخرى ولو وجودا افتراضيا . ولما كان التشبيه – كما سبق القول – علامة بما هو رسالة في الوقت نفسه ، فإنه لا يتصور كذلك إلا باعتبارات تخص موقعه من سياقه وعلاقاته بعناصر هذا السياق . والتشبيه – العلامة(/الرسالة) يبدأ مما قبله ويأخذ موقعه ثم يبدأ فاعليته السيميوطيقية فيما بعده ، ثم هو يتغلغل النص كله يختار ويوزع ويفرض على النص نسقا خاصا به يضاف إلى أنساق النص مسهما في الإشارة إلى آفاق قراءة النص واحتمالاتها .

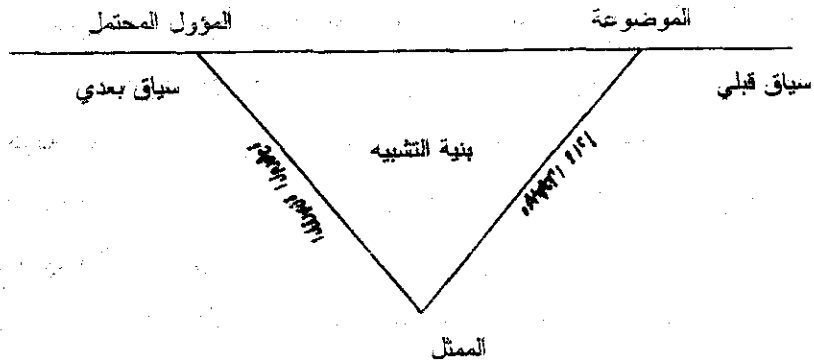

إن التشبيه يقتنص إليه ممـــا قبلـــه موضوعـــة صريحـــة/مشـــبها لممثله/المشبه به ، ومن ثم فهو لا يبدأ من بنيته وإنما يبدأ مما قبلها ، فـــهو يمتلك – بالضرورة – سياقا قبله ، وبالتالي فلا يتصور أن تتنـــاول فاعليتـــه السيميوطيقية دونما اعتبار لهذا السياق . وكذلك يفتتح الممثـــل/المشـــبه بـــه إمكانات السياق البعدي ، هذه الإمكانات التي لا يحققها إلا إنتـــاج المـــؤول بداية. غير أن الممثل يظل مشدودا أكثر إلى القرينة المرشحة لوجه الشـــبه ، فيوهم باكتمال بنية التشبيه ، هذا الإيهام الذي تورط فيه الـــدرس البلاغـــي فحصر خطابه في تلك البنية الموهمة بالاكتمال . وبكلمة إن بنية التشبيه بنية تنتمي إلى ما قبلها بحكم الموضوعة أو المشبه ، كما تنتمي إلى مـــا بعدهـــا بحكم وجود المؤول فيه ، وتصل بين السياقين من خلال أداة التشـــبيه التـــي تصل الموضوعة في السياق القبلي بـــالممثل أو المشـــبه بـــه ، وبالقرينـــة المرشحة لوجه الشبه التي توظف لحساب إنتاج المؤول في السياق البعدي .

أولا : السياق القبلي أو التأسيسي

ليس النص بنية لغوية ناجزة ، وإلا لما كان لمفهوم الاتصال مدخل فيه ، إن هذه البنية اللغوية الناجزة ما هي إلا مساحة للممارسة نصية أكثر من كونها نصا ، وما دامت ممارسة فلابد لها من استراتيجيات ، منها ما هو بلاغي وما هو أسلوبي ، ومنها ما هو بنيوي وما هو تأويلي . والانتقال من استراتيجية إلى أخرى ليس مسألة إرادية مطلقة بل تفرضها أمور شبيهة بالأزمات ، أو هي كذلك ، تعتري امتداد السياق اللغوي . غير أن صور حل مثل هذه الأزمات ينبع من إرادة إبداعية حرة مطلقا . إذن يقوم تعدد الاستراتيجيات في ممارسة نصية معينة على قاعدة جدلية هي ثنائية "الأزمة – الحل" ، حيث يمثل وصول السياق إلى نقطة بعينها أزمة في الاحتفاظ بخصائصه السابقة ، أو الاستمرار في استراتيجية بنائه السابقة ، ومن ثم تمثل الكلمة/الأزمة تلك نهاية استراتيجية سياقية معينة وبداية أخرى مختلفة . وفي حالة التشبيه فإن الكلمة – الأزمة تغلق جميع جداول الاستبدال الممكنة على محور الاختيار باعتبارها كلمة ، وفي الوقت نفسه تفتح جميع هذه الجداول باعتبارها مشبها/جزءا من صورة مقبلة . وإن أي درس سيميوطيقي لا يسعه أن يكون كذلك إذا ما أهمل طبيعة السياق الذي فرض هذا التحول للكلمة إلى عنصر تصويري ، هذا السياق الذي كان ينسرب خفية في السياق العام ليستعلن في لحظة بعينها من هذا الأخير أزمة له واقتراحا عليه بحل لهذه الأزمة . ودراسة الموضوعة أو المشبه ليست ببساطة درسها في البلاغة العربية القديمة ، فهي أكثر من مجرد عنصر لغوي هو محور البناء التشبيهي ، إنه على حد تعريفه في المنهج الموضوعي "مبدأ تنظيمي

محسوس ، دينامية داخلية ، شيء ثـــابت يســـمح لعـــالم حولـــه بالتشـــكل والامتداد"[١]..

ثمة عناصر ثلاثة في التعريف السابق :-

- مبدأ تنظيمي (أكان محسوسا أم لم يكن) .
- دينامية داخلية .
- شيء (أيا كانت صفته) يسمح لعالم حوله بالتشكل والامتداد .

وهذه العناصر الثلاثة يمكن أن تكون وصفا جيدا للموضوعة/المشـــبه . أما كون المشبه مبدأ منظما فإنه لكذلك ، ليس لما بعده ، بل لكل ما سبقه ، فارتفاع كلمة من مجرد كونها عنصرا لغويا في سياقها الـــتركيبي العـــادي لتتحول إلى فاتحة تصويرية ، تحتاج أن تكون أكثر من كونها كلمة ، وليـــس أدق من تعريفها بأنها "مبدأ منظم" ، إذ إن تحولها ذلك يعيد التفكير بكل مـــا خصها قبل . إن المشبه يمتلك ما يشبه معجما كاملا سابقا علـــى وجـــوده ، كانت أولى مهماته تهيئة السياق لتحويل الكلمة العقدية لهذا المعجم إلى مشـــبه أو موضوعة تصويرية . ولعلنا في غنى عن التمثيل بكثير من الشعر العربي القديم الذي تضمن تشبيهات لندلل على أن المشبه يتم صناعته علـــى مـــهل وربما منذ بداية القصيدة .

---

(١) راجع د.عبد الكريم حسن – المنهج الموضوعي نظريـــة وتطبيـــق – المؤسســـة الجامعية للدراسات والنشر ٠ بيرون – ط١ : ١٩٩٠ ص : ٤٢ . وقد يجـــب أن نشير إلى أن هذا التعريف يخص المنهج الموضوعي ، وربما كان أبعد ما يكـــون من موضوعنا ، إلا أن من الممكن الاستفادة به كما سنرى .

ثانيا :السياق التركيبي أو البنية التشبيهية

مفهوم البنية التشبيهية لا يتطابق مع أركان التشبيه التي اهتمت البلاغة بتفصيل أنواعها وأقسامها وما يترتب على هذه الأنواع والأقسام من وجوه تشبيه . إن الخطاب البلاغي القديم عن التشبيه يتوقف عند العناصر غير ناظر إلى كلية العلاقات فيما بينها ، ولا إلى الدينامية الداخلية التي تتأدى بالصياغة إلى نواتجها . ومن ثم فليس غريبا ألا يميز ذلك الخطاب بين عناصر التشبيه ، وكأنها متكافئة تماما في أهميتها ، والواقع بخلاف هذا تماما . عناصر التشبيه كما في خطاب تراثنا أربعة عناصر ، وهي : المشبه – المشبه به – أداة التشبيه – وجه الشبه. لكننا نفرق – هنا – بين مفاهيم ثلاث : العنصر والعامل والأداة .

١–العنصر : طرف العلاقة ومكون من مكونات البنية .

٢–العامل : الحافز الذي يدفع العنصر للتعالق مع سواه .

٣–الأداة : نوع من المهيىء الذي يصل بين طرفين .

أما عناصر التشبيه على ضوء ما سبق فعنصران : المشبه (الموضوعة) والمشبه به (الممثل) . وأما العامل فهو القرينة المرشحة . وأما الأداة فهي هي أداة التشبيه .إن عنصري التشبيه ، أو طرفيه ، يمثلان ، كما سبق القول، طرفي الثنائية الجدلية : "أزمة – حل" ، غير أن التأمل فيهما يظهر كيف أنهما ينتميان إلى جدولي استبدال ، أو لنقل : حقلي دلالة مختلفين ، وإذا كان الاختلاف هو مبدأ كل تركيب فإن هذين العنصرين يتمتعان بعدم إمكانية قيام علاقة إسنادية مباشرة بينهما . هنا يأتي دور الأداة ظاهرة فتصل بين الاثنين أو مقدرة فتؤول طبيعة الصلة بينهما . والملاحظ أن جميع أدوات

التشبيه على اختلاف ما بينهما ، سواء في نوعها لغويا ، أو في مكان المشبه أو المشبه به منها ، جميعها بمعنى واحد ، وعدم تفاوت هذه الأدوات المتنوعة في دلالتها يعني أنها لمطلق التشبيه ، وهذا التشبيه المطلق يحتم ضرورة وجود "العامل".. إذا كانت الأداة / أداة التشبيه تعمل على عقد مطلق الصلة التشبيهية بين عنصري/ طرفي التشبيه ، على المستوى التركيبي ، فإن العامل/القرينة المرشحة يعمل على قيام العلاقة التدليلية بين ذينك العنصرين ، هذه العلاقة المسئولة عن امتداد الممثل/ المشبه به فيما بعده لإنتاج المؤول ، وهذه الحركة الممتدة من البنية التشبيهية إلى السياق بعدها يمكن أن تتقلص عند مسافة بعينها من السياق البعدي أو تمتد حتى نهايته ، المهم أن المؤول – بهذا التصور – يصبح بحاجة إلى وصف يميز الحراك الدلالي المنتج له ، ولنطلق عليه "المؤول النصي" ..

ثالثا : السياق البعدي

يكتمل التشبيه باكتمال علامة الممثل ، غير أن الفعل السيميوطيقي للتشبيه لا يبدأ إلا باكتمال البنية التشبيهية ، وقد رأينا أنها بنية مفتوحة على الاكتمال أكثر من كونها بنية مكتملة ، حيث المؤول لا تحدده كلمة ، بقدر ما تؤشر عليه رحلة البنية في نصها محاولة اقتناص مؤولها ، الأمر الذي دعانا إلى وصف هذا المؤول المحتمل بالنصية . إن الاستراتيجية البلاغية لا تستنفد غاياتها باكتمال التشبيه فاكتماله البنيوي لا يعني اكتماله سيميوطيقيا ، إذ لم يفعل التشبيه أكثر من كونه أضاف مكونات دلالية للفظ المشبه لم تكن له في أصل الوضع اللغوي ، ثم إنه أقامه صورة ليس لها تميزها داخل السياق ، إنما لها كذلك مطلوباتها من هذا السياق وفاعليتها فيه ، ولكن تلقيا هذه المرة . ميزة الأدبي أنه – من منظور خصائصه – يمكن اعتباره في

كليته كلمة من حيث التماسك والانسجام والدلالة . ويمكن اعتبار كل واقعة أسلوبية أو بلاغية فيه كذلك بالنظر فيها من الحيثيات السابقة : التماسك والانسجام والدلالة . والتشبيه – باعتباره كلمة – يمارس ، داخل نصه ، نوعا من الاختيار وضربا من التوزيع . أما الاختيار فببنية مواضعته ، وأما التوزيع فببنية عدوله [1] والإسقاط الافتراضي لمبدأ الاختيار على محور التوزيع يمثل نص الفاعلية السيميوطيقية للتشبيه في سياقه البعدي . يبدو أن للعامل/القرينة المرشحة لوجه الشبه دورا ما يزال ، فهو يمثل متكأ قرائيا لا غنى عنه اختيارا وتوزيعا في السبيل إلى بناء المؤول النصي .. إنه المهاد التصويري تصنع فيه القراءة ذلك المؤول .فإذا ما توسلنا بالنظرة الجزئية لبلاغتنا في سبيل توضيح ما نود قوله من خلال شاهد بلاغي شهير هو :

يا شبيه البدر حسنا وضياء ومنالا

لوجدنا أن حسنا وضياء ومنالا – وهي عوامل أو قرائن مرشحة – تصنع إطارا أو مهادا كما قلنا لحركة المتغزّل بها محتفظة بإنسانيتها ، تجاه بعض مكونات البدر الدلالية ، لا لإقامة التشبيه فحسب ، بل أكثر من هذا ، لبناء هذا المؤول الذي للبنية التشبيهية ودفعه لبناء علامة / أيقونا أكثر تطورا ، لا يتوقف عن الفعل في النص ، إذ هو ملك للقراءة أكثر من كونه مرتهنا للنص . ثم إن تحليلا للمقومات الثقافية (للمفردة مقوماتها الثقافية كما لها

---

(١) قلنا سلفا أن التشبيه عملية إعادة توزيع للمكونات الدلالية لكل من المشبه والمشبه به ، بما يسمح ببناء صورة للمشبه ملائمة لمقاصد النص . وقلنا إن هذه العملية لا تلغي ما كان لطرفي التشبيه من مكونات دلالية في أصل الوضع اللغوي ، بل تظل فاعلة ، وهذا هو مظهر فعلها .

مقوماتها الدلالية) سيؤطّر الناتج الأيقوني للتشبيه بخطابه العام الذي يجعلـــه دالا جماليا .

جدل الصورة والتشبيه ..

لعلنا نوضح أمرا مهما منذ البداية ، هو غياب أهم مفهومين بالنســبة للتشبيه ، أولهما : غياب مفهوم الصورة عنه . والآخـــر : غيــاب مفــهوم الجمال – مطلقا – من الخطاب البلاغي كله وليس ما يخص التشـــبيه فيـــه فحسب. إن أهم ما انشغل به خطابنا التراثي عن التشبيه هو طبيعة طرفـــي التشبيه ، من حيث كونهما حسيين أو معنويين ، فعن تناولهم هـــذه النقطـــة فرعوا ثلاثة احتمالات:

١– تشبيه حسي بحسي .

٢– تشبيه معنوي بمعنوي .

٣– تشبيه حسي بمعنوي أو معنوي بحسي .

وقد كانوا في القسمة الأولى داخل دائرة اللغة ، فدلالـــة الألفــاظ لا تخرج أن تكون دلالة حسية تدرك بالحس أو دلالة معنوية تــدرك بـــالعقل . والمجاز لا يخرج عن هذه القسمة كذلك فالناتج عنه إما هذا أو ذاك . ولكــن كون التشبيه تركيبا كان الإشكال الذي تورط فيه الخطاب البلاغي القديـــم ، فألحقوا بالحسي التشبيه الخيالي ، وبالمعنوي التشبيهَ الوهمي والوجدانـــي ، وكان الفيصل الحاسم في التفرقة بين هذه الأنواع الملحقة هو ما يـــؤول بـــه التشبيه ، هل يؤول بالحسي أم بالمعنوي . إذن فدوائر التشبيه فـــي الـــتراث دائرتان أساسيتان وتلحق بكل دائرة أخريان تؤولان بها ، كما يبين المخطـط التالي :

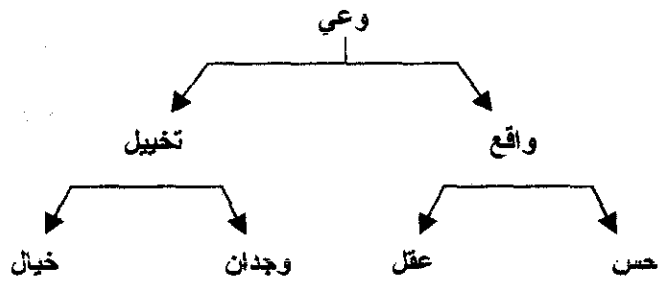

ولم يكن عندهم تمييز بين واقعي وخيالي ، أو بين وهمي وخيـــالي ، اللهم بامتحان الناتج على وجوده أو إمكان وجوده ، أو استحالة وجوده ، ولو وجد فإلى أي دائرة من الدائرتين الأساسيتين يمكن أن يلحق ؟ .. هذا ، بينمـا كان من الواجب تحديد المفاهيم قبل التأسيس عليها ، وبخاصـــة أن مفـــهوم مصطلح ما لابد سيختلف عندما تختلف دائرة عمله .والحقيقة ، ثمة احتمالان ممكنان للتقسيم ، إن كان التقسيم لابد منه . فإما أن نرتكـــز إلـــى المشـــبه باعتبار أنه مقصود العملية التشبيهية بجملتها ، بهدف إثراء مكوناته الدلالية التي له في أصل الوضع اللغوي ، فتكون لدينا الأقسام التالية التي يوضحـــها المخطط التالي :

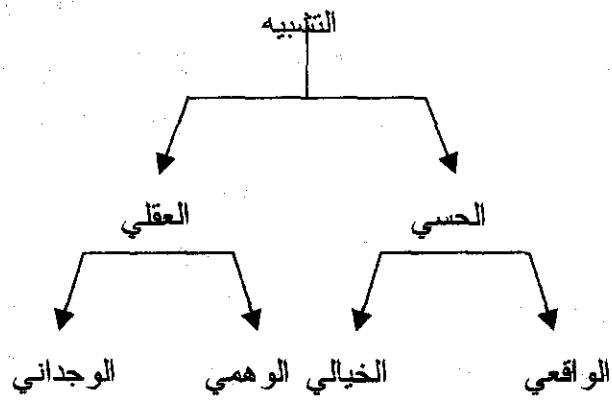

وقد نعتبر الناتج فلا نكون إزاء أي من تفريعات الخطاب البلاغـــي عن التشبيه وتقسيماته ، بل إزاء الفاعلية السيميوطيقية للتشبيه ، كمجـــاز ، في سياقه البعدي . وهذه الفاعلية ناتجة عن صورة ماثلة في الذهن إمـــا أن تكون صورة ممتدا فعلها في سياقها البعدي ، أو تكون صورة منقطعة تـــهتم بجزء من سياقها فحسب ، الأولى شائعة في أغلب الشعر العربي الحديـــث ، والثانية قائمة في أغلب الشعر العربي القديم. ومن الضروري التأكيد على أن الفعل السيميوطيقي للتشبيه باعتباره تصويرا ، أو لنقل : باعتبـــاره إنتاجـا لصورة ، يظل قائما في نوعي الصورة هذين .

- التلقي وجدل الصورة والتشبيه ..

تبدأ الشعرية من ثقافتها الماثلة في لغتها نظاما وخطابا ، ولكل ثقافـة أسلوبها الخاص بها في الأيقنة ، والأسلوب العربي للأيقنة يعتمد تقنية أساسية هي التشبيه ، ثم يضاعف العمل على بنية التشبيه فتكون الاســـتعارة (وقـد نضيف تقنية أخرى مغايرة هي الكناية.. فكل علم البيان – فـــي زعمنـــا – تصوير) . ولعل الجدل الذي نعنيه من العنوان الأسبق ، ينتمي إلـــى دائـــرة جدلية أوسع يقوم الجدل فيها بين "الصورة" من جهة وبين "اللغة" عموما مـــن جهة أخرى .. يرصد "محمد العماري" عددا من الفروق بين الصورة واللغـــة تتمثل في ثلاثة : "

١- الرسائل اللفظية تظل سجينة قواعد النحو والتداول خلافـــا للخطـــاب البصري الذي لا يخضع لقواعد تركيبية صارمـــة، إضافـــة إلـــى أن عناصره تدرك بشكل متزامن .

٢- الخطاب اللفظي يقبل التفكيك إلى عناصر يقوم المتلقي بإعادة تركيبها ليتحصل له معناها ، في حين أن خطاب الصورة تركيبي، لا يقبل التقطيع إلى عناصر صغرى مستقلة .

٣- علامات اللسان تقوم على الاعتباط والمواضعة (أي العلاقة بين الدال والمرجع فيها غير معللة) في حين أن الصورة تقوم على التعليل والمشابهة." (١)

ثمة قناعة نظرية تذهب إلى أن كل اختلاف هو جدل من زاوية نظر أكثر عمقا من الزاوية الوصفية ، ولعل إمكانية الترجمة بين كل من الصورة واللغة هي قاعدة قيام الجدل بين الاثنين. والقناعة النظرية الثانية أن لكل جدل نواتجه ولابد ، في هذه النواتج ينحل جدل المستوى السابق ليقوم جدل آخر بين ناتج واختلاف جديد (حسب "هيجل" بالطبع) . وقد كان من نواتج الجدل بين الصورة واللغة ، على مستوى اللغة ، علم البيان عموما والتشبيه خصوصا . وعلى مستوى الصورة كان فن التصوير الإسلامي الذي اعتمد ، في الأصل ، على خطاب لغوي ديني موضوعا وخطا وزخرفة ، وأقرب من هذا رحما : الشعر البصري . يمكننا – إذن – الزعم مع "محمد غرافي" أن "التعارض القوي بين "البصري" و"اللغوي" اختزالي جدا ، لأنه يسقط من حسابه كل حالات التقاطع والتطابق والتركيب . وهو تعارض جزئي كذلك لأنه يهمل كل الدلالات التي ليست لسانية محضة ولا بصرية محضة." (٢).

---

(١) محمد العماري – الصورة واللغة مقاربة سيميوطيقية

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com/indexl.htm بتصرف .

(٢) محمد غرافي – قراءة في السيميولوجيا البصرية

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com/indexl.htm

وبإثبات الجدل بين الصورة واللغة ، وأن التشبيه هو هذه المساحة التي يلتقي فيها الاثنان التقاء محفزا لصورية اللغة ولغوية الصورة في آن معا ، يصبح تلقي الصورة التشبيهية منوطا بتفعيل هذا التحفيز ليس لحساب لغوية الصورة – فهذا واقع قائم في البنية التشبيهية نفسها ــ إنما لحساب صورية اللغة التي يمثلها الأيقون – المؤول ، أو العلامة الأكثر تطورا ، ومن ثم لحساب النص. إن ناتج التشبيه وليس الغرض منه هو مدار تلقيه ، ونقطة تميز النظر السيميوطيقي إلى التشبيه من التصور اللساني الذي قدمته له البلاغة العربية في خطابها الذي غلبت عليه النزعة التعليمية أكثر من النزعة التحليلية ، بل كانت التحليلات التي قدمها ذلك الخطاب مرهونة بالنزعة التعليمية في الغالب . ولعلنا نلتفت في النهاية إلى أن الخطاب البلاغي عن التشبيه لم يكن ببعيد عن مداخلة صريحة للصورة على موضوعه ، وذلك ما نجده في التشبيه المركب ، وهو يتحدث عن الصورة المنتزعة من متعدد ، فثمة معنى يتضمنه هذا الوصف ، وكأن التشبيه عبارة عن صورة ، إما منتزعة من مفرد أو منتزعة من متعدد . فيما نرى أن بلاغتنا لم يشك خطابها نقصا بنيويا بقدر ما عانى من تلقيه السلبي الذي توقف به عند حدود لو توفر لمن وضعوها ما توفر لنا من معارف وثقافات لوسعوا حدود موضوعهم ، ودققوا بعض مفاهيمهم ، وراجعوا كثيرا من تقسيماتهم وتفريعاتهم ، وأكثر من هذا لحلوا كثيرا من اختلافاتهم .

مراجع الدراسة

١- د.أحمد مطلوب – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – المجمع العلمي العراقي – بغداد– ١٩٨٣

٢- برند شبلنر – علم اللغة والدراسات الأدبية – ت : محمود جاد الرب – الدار الفنية – القاهرة – ط:١ – ١٩٨٧

٣- ابن سينا – العبارة (ضمن كتاب : منطق الشفاء) – تحقيق : إبراهيم مدكور وآخرين – القاهرة – ١٩٦٦

٤- ابن منظور – لسان العرب – دار المعارف – القاهرة

٥- بول ريكور من النص إلى الفعل – ت : محمد برادة – عين للدراسات والبحوث – ط:١ – ٢٠٠١

٦- بهاء الدين السبكي – ضمن شروح التلخيص – دار السرور – بيروت – د.ت

٧- تشارلز ساندرز بيرس – تصنيف العلامات – ت : د. فريال جبوري غزول – ضمن كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا

٨- د.ثروت عكاشة – المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية – مكتبة لبنان – بيروت – ١٩٩٠

٩- ج . هيو سلفرمان – نصيات – ت : حسن ناظم وعلي حاكم صالح – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء– ط :١ – ٢٠٠٢

١٠- جوليا كريستيفا – علم النص – ت : فريد الزاهي – دار توبقال – الدار البيضاء – ط:١ – ١٩٩١

١١- جوليا كريستيفا السيميائية علم نقدي و/أو نقد للعلم - ت جورج أبي صالح - مجلة العرب والفكر العالمي - مركز الإنماء القومي - بيروت - العدد الثاني - ربيع ١٩٨٨

١٢- الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن - تحقيق : محمد سيد كيلاني - البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الأخيرة - ١٩٦١

١٣- روبرت دي بوجراند - النص والخطاب والإجراء - ت : د.تمام حسان - عالم الكتب - القاهرة - ط:١ - ١٩٨٨

١٤- رولان بارت - هسهسة اللغة - ت : د.منذر عياشي - مركز الإنماء الحضاري - حلب - ط:١ - ١٩٩٩

١٥- السكاكي - المفتاح - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٣

١٦- سيزا قاسم - السيميوطيقا .. حول بعض المفاهيم والأبعاد - ضمن كتاب : مدخل إلى السيميوطيقا - إعداد : نصر أبو زيد وسيزا قاسم - دار إلياس - القاهرة - ١٩٨٦

١٧- د.عبد الكريم حسن - المنهج الموضوعي- المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت - ط :١- ١٩٩٠

١٨- عبد المتعال الصعيدي - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة - مكتبة المعارف - الرياض - ١٩٩٩.

١٩ - مجموعة - المنجد في اللغة - دار المشرق - بيروت - ط : ٣٥ - ١٩٩٦

٢٠- د.محمد عبد المطلب - البلاغة العربية قراءة أخرى - لونجمان -

القاهرة – ط١ ، ١٩٩٧

٢١- محمد الماكري – الشكل والخطاب – المركـــز الثقـــافي العربـــي – بيروت/الدار البيضاء – ط١ : ١٩٩١

مقالات على الإنترنت

٢٢- سعيد بنجراد – المؤول والعلامة والتأويل –

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com

23- ماجد محمد حسن – مفهوم الجمال بالفكر الغربـــي – العـــدد:٩٨٩ – ٢٠٠٤/١٠/١٧-

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp

٢٤- محمد العماري – الصورة واللغة مقاربة سيميوطيقية

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com/indexl.htm

٢٥- محمد غرافي – قراءة في السيميولوجيا البصرية

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.com/indexl.htm

٢٦- د. مفتاح محمد – مفهوم الحقيقة عند تشالز ساندرس برس

http://www.aljahidhiya.asso.dz/Revues/tebyin15.htm